اميل يوسف عوّاد

رجل سياسة

مجموعة قصص وحكايات

اميل يوسف عوّاد

رَجُل سِيَاسَة

مجموعة قصص وحكايات

•

بيروت سنة ١٩٥٢

مطبعة فاضل وجميل — الدوره



رجل سياسة

منذ ثلاثة ايام وهو في حالة الغضب والحنق . لقد طلب حاجباً لغرفته وتلفونا لمكتبه وسيارة جديدة يرفرف عليها العلم . ولقد كرر طلباته هـذه مرات عديدة لكن عبثاً . وهو يقيس الغرفة جيئة ورواحاً الف مرة في اليوم منتظراً .

– اصلاح البلاد بيدي . انا اعلم الحكام بهذا الشعب . اعطوني سلاحاً . اعطوني جيشاً . اعطوني طائرات . ازيل الفوضى ، اعيد هيبة الحكم ، اكسي العريان اطعم الجائع ، اصنع من البلاد جنة .

عاد عباس الدلمي الى بيته في ساعة متأخرة من الليل ، وعندما وصل الى الباب اخذ المسدس من وسطه واطلق منه بضع طلقات نارية دوت في اذني زوجته النائمة فاستيقظت مضطربة مذعورة وشد ما كانت دهشتها عندما رأت زوجها يدخل عليها وهو يقهقه ، وبشيء من السخرية قال لها :

– « عباس الدلمي كلمتو كلمي » اضحكي مع ابي انيس .

وتناول من جيبه ورقة طويلة وعريضة وقذف بها على الارض :

– خذي ! اتعرفين القراءة ؟ فاز «البيك» ام سقط ؟ وهل بقدرة «البيك» ان يفوز وابو انيس يريد له السقوط ؟

وعاد الى قهقهته :

– قهقه ... هه ... قهقه ... هه . هه مسكين هه ... هه ... مسكين ابو انيس .

ثم اقترب منها وجلس الى جانب فراشها وقد انفرجت اساريره عن ابتسامة مشعة :

— البيك صار نائباً . يعني ان عباس الدلي «كلمتو كلمي» . ويعني ايضاً اننا سنفتتح غداً عهداً جديداً سيكون باذن الله عهد خير وبركة .

فتنهدت الزوجـة ورفعت اللحاف الى فوق رأسها وعادت تغط في نومها .
«افاز البك ام سقط سيان عندها همها ان يجد زوجها عملاً :

— دع السياسة لمن عندهم الجاه والثروة . السياسية عمل الذين هم بغنى عن العمل . اما انت فانظر الى بيتك وفكر باولادك .

— انت تجهلين السياسة ، السياسة تدور ، يوم اسود ، ويوم ابيض . ومن كان يخص «البيك» فلا يموت من الجوع .

— لماذا لا تكون مثل غيرك . هذا حنا العركي ، هذا يوسف طنوس هذا علي الفرج هذا ابو حسن ، ابو حسن الذي يتكلم انكليزي وفرنساوي وهـذا جارنا الذي جاب بلاد اميركا طيلة عشرين سنة . لمـــاذا لا يتعاطون السياسة ؟ وما هو هدفك انت ؟ ما هي الغاية ، ما هي النتيجة لتصبح يوماً موظفاً في الحكومة ؟ ابوك كان مكارياً هل تخجل من ابيك ؟ من صنعته ؟ «الشغل مش عيب» مهما كان . العيب اتعرف ما هو العيب ؟

فقاطعها عباس :

— انت تجهلين عباس . اود ان تحضريه في جلسة من جلسات السياســـة عند البك عندئذ تغيرين رأيك فيه .

— جلسة عند البك ؟ كل شيء ولا ذلك اتريدني ان اراك تقدم القهوة والسكاير لضيوف البك ، والبك في صدر الدار يعطيك الاوامر ؟ اتريد ان اكتشف فيك عبداً ذليلاً ؟ ولو كنت تخدم في بيتك لهـــان الامر . هل تذهب الى العـين ان انا طلبت منك ؟ ولكن جرة البيك تحملها كأنك حامل ضمة من الزهور .

— الهذه الدرجة تنكرين الفضل والمعروف ؟ من اين نأكل من اين نلبس ؟

ـ انت رجل ولست عبداً ، وعلى الرجـــل ان يحتفظ بحرية التصرف باموره بكرامته بعزة نفسه ، بشيء من الكبرياء .

ـ لقد قلت لك الف مرة انني احب السياسة . والسياسي يجب عليه في ايامـه السوداء ان يضحي من كبريائه وكرامته . قوة خفية هائلة تدفعني للسياسة ، ربما اصل الى مركز سياسي خطير بفضل هذه القوة وهـذه الحرارة التي احسها في حبي للسياسة فلا تقفي حجر عثرة بيني وبين هـدفي . ان ستالين وهتلر وموسوليني كانوا فقراء مثلي وعانوا الكثير من الاضطهاد والحرمان .

ولم ينتظر عباس الا بضعة ايام ، فقد دعي البك للاشتراك في اول وزارة بعد الانتخابات ، فحقق وعده لعباس :

ـ صباح السبت القادم يصدر مرسوم تعيينك حاجب غرفتي الخاص .

وكانت ليلة السبت في بيت عباس الدلمي ليلة عامرة .

ـ كأس المرسوم يا عباس افندي .

وتضحك زوجة عباس لكلمة افندي ضحكة الفخر والاعتزاز ، لقب افنـدي لقب له قدر كبير في القرية وهو لقب يبشر بعهد خير وبركة .

وعباس يرفع مرسوم تعيينه من وقت الى آخر فـــوق رأسه وينشد بيتاً من القرادي :

يا بيك نحن رجـالك	الموت لاجلك ما منهاب
عابابك نحـن منوقف	جنـد مسلح وحجاب

ويدوي الرصاص بالفضاء ممزوجـاً بزغاريد النساء فرحاً ونكاية بالحزب الآخر الفاشل ، الذي انكمش كل واحد من اعضائه على نفسه وبقي في البيت ، لا يجرؤ على الخروج الى الدرب لستر خيبة امـله ، والم انكساره ، ان السياسة في القرية تلبس لباساً حزبياً عـــدائياً منذ عهـد بعيد وقليـلون هم الذين يشتركون في الانتخابات بروح رياضية سمحة .

ويقهقه الجمع وترفع الكؤوس حتى سقف البيت ويخرج البعض الى المصطبة ويطلقون لاصواتهم العنان ولا يتركون اغنية يعرفونها الا ويغنونها .

وعباس يفتل شاربيه ، ويشرد في فكره من حين لآخر ، انه افندي هذا اول انتصار في السياسة ، وسيعقبه انتصارات ، لقد قال له البيك : « ستصير يا عباس سياسياً مرموقاً » ويحاول عباس ان يقلد البك في مثل هـذه الحفلات فيأمر هذا ويضحك لهذا ، ويعبس في وجه ذلك ، ويتحدث الى الجمع برصانة مرة وبالنكات والقهقهة مرة اخرى .

وامتدت السهرة الى بعد منتصف الليل وعندما فرغت الطـاولة من « المازة » والعرق ، وقفوا جميعاً وتقدم الواحد تلو الآخر من عباس قائلين :

— عامر يا عباس افندي .

— ان شاء الله نشوفك بك مرة الجاي .

— مبروك يا عباس افندي .

واستأجر عباس الدلي بيتاً في بيروت والتحق بوظيفته واصبح بطبيعة الحال محط انظار القاصدين الى وزارة البك فهذا يقدم له علبة سكاير وذاك يضع في جيبه بعضاً من المال ، وذلك يعده ان اجاب البك الى طلبه بهدية ثمينة . الكل يطلبون رضاه . فهو حاجب الوزير . يقفل الباب بوجه من يشاء ويفتحه بوجه من يشاء .

وكثيراً ما كان الصحفيون يكتبون عن عباس الدلي وينشرون صورتـــه ويشيرون الى شاربيه الجميلتين مثـــلاً : «وكان حاجب الوزير السيد عباس الدلي يستقبلنا على الباب بغاية اللطف والترحاب » او « ان ما يقوم به الحاجب السيد عباس الدلي من اللياقة وحسن الاستقبال تجاه الزائرين يستحق كل تقدير وتشجيع»

وكان لعباس الدلي دالة على الوزير فما رفض الوزير له طلبــاً ممكناً . فاصبح عباس محجة لكل من كان له علاقـة بوزارة البك . يلتمسون منه لفت نظر الوزير الى طلبهم او تذكيره بقضية .

لكن عباس الدلمي ، عباس الذي كان يبتسم لكل زائر ويسأله عن خدمـــة يؤديها له لم يلبث ان دب الغرور والكبرياء في نفسه . والويل لمن لا يعرفـــه انه حاجب الوزير . فهو عندما ينزل الى السوق ليبتاع حاجات البيت يتقـدم من كل بائع – اتعرفني ؟ انا عباس الدلمي .

– ومن اين حضرتك ؟ وماذا تعمل ؟ ساحاول ان اتذكرك .

– انا عباس الدلمي حاجب الوزير يعني عليك ان تعاملني معاملة وزير افهمت؟

ومن يجرؤ ان يعامله كبقيـة الزبائن فحادثة سعيد النجابي بائع الحرير لا تزال على كل شفة . فسعيد هذا رفض ان يحسم لعباس من ثمن قطعـــة حريرية ابتاعها لزوجته . وكانت النتيجة ان اعتقل في اليوم الثاني بحجـة انه اهان الوزير . وهذه الحادثة كانت من اهم اسباب غرور و كبرياء عباس . وقد كان يسردها لكل معارفه وهو يفتخر : «عباس الدلمي كلمتو كلمي» واصبح يضمر الشر والضرر لكل من يعكر صفوه او يزعج خاطره . طالما باستطاعتـه اعتقال من يشاء باسم الوزير فما الذي يمنعه من ان يفعل ما يخطر بباله ؟ لقد خطر بباله عـــدة مرات ان يشرب العرق في المقاهي ولا يدفع قرشاً واحداً ففعل ولقد خطر بباله عـدة مرات ان لا يدفع عن زوجته اجرة الترامواي ففعل ، ولقد خطر بباله اشياء مختلفة كلها خارجة عن القانون ففعلها . ومن اعترضه عوقب بحجة انه اهان الوزير .

وبعد انقضاء ستة اشهر بدأت عواصف المعارضـــة تعصف في وزارة البك . فالسياسة تدور . يوم اسود ويوم ابيض . وظلت المعارضـة تهاجم الوزاره طوال اسبوعين كان خلالهـا عباس يطالع الصحف من الصباح حتى المساء من اول حرف الى آخر حرف في كل صحيفة . وفي الليل لا يغمض له جفن . «لا ... لا لن استقيل انا . لن يستقيل البك . سنظل في الوزارة سنبقى بالقـــوة . ساعود الى بيـتي . سينتزعون مني لقب الافندي ؟ سيضحك مني ابو انيس ؟ لا ... لا ... غير ممكن آه لو ان البك يتركني افعل ما اشاء لقتلت كل صحفي يكتب ضدنا . لكن البك يأخذ كل شيء بالبرودة . انا لست كذلك اريد ان اقتل ، اقتلهم كلهم . المعارضة

المعارضة ... الاستقالة ، الاستقالة ... هذه كلمات لا استطيع احتمالها ، انها كلمات تضج في رأسي ، رأسي ضائع . عباس افندي ... افندي ... افندي ... نحن بانا رضاك عباس افندي ، نحن بامرك عباس افندي . افندي ... افندي ... آه رأسي ! رأسي ضائع . كأس المرسوم يا عباس افندي ، مبروك يا عباس افندي ان شاء الله منشوفك بك مرة الجاي يا عباس افندي . افندي ... افندي ... عباس افندي آخ ... آخ ... رأسي ... رأسي ضائع .

واستقالت الوزارة ، وجاء وزير غير البك . وصدر مرسوم بتعيين حاجب جديد من رجال الوزير الجديد . وعاد عباس الدلمي الى بيته وزيراً مجنوناً .

— ◆ —

زهور

في الخامس عشر من نيسان ١٩٣٠ كان امين الدالات يودع اهله ومعارفه على مرفأ بيروت .

— وحياتك يا امي لن تطول غيبتي .

— غير فكرك يا ولدي . الدنيا بالف خير هنا .

وها هي سلمى اتت تودع امين ، وهي تحمل اليه ضمة من زهر الاقاح وفي عينيها دمعات تكاد تنفجر لولا خجلها من الناس .

— هذه ضمة من الاقاح . احتفظ بها .

— سلمى ارجو ان تثقي بي . لن انساك ابـداً . ولن تطول غيبتي ساجوب الدنيا واجمع لك المال . ستكونين في قلبي اينما توجهت وفي عيني اينما نظرت .

— الله معك يا امين .

وصفرت الباخرة علامة موعد السفر . وراح حراس المرفأ يبعدون الناس عن الباخرة بالعصي والصراخ . وانطلقت السنة المودعين بالدعاء والابتهال . وارتفعت الايدي تلوح بالمناديل البيضاء . وتوارت الباخرة رويـداً رويـداً . وعادت سلمى وحدها في مؤخرة المودعين وقد انفجرت بالبكاء .

— هل يعود الي امين ؟

— سلمى . ارجو ان تثقي بي . لن انساك ابداً . ولن تطول غيبتي . ساجوب الدنيا واجمع لك المال . ستكونين في قلبي اينما توجهت وفي عيني اينما نظرت .

— امين هل انت صادق معي ؟

— سلمى . ارجو ان تثقي بي .

— يقولون البعد ينسي . هل هذا صحيح يا امين ؟

— لن انساك ابداً ولن تطول غيبتي .

— ستعود الي اذن وتبني لي بيتاً جميلاً ؟ ستشتري لي سيارة كسيارة جارنا الاسبنيولي ؟ هل توفق في جمع المال ؟

— سأجوب الدنيا واجمع لك المال .

— ربما رأيت نساء جميلات في بلاد اميركا . يقولون ان النساء هناك ساحرات ستحب غيري ؟ ستتزوج من اميركية ؟

— ستكونين في قلبي اينما توجهت وفي عيني اينما نظرت .

— سانتظرك مهما طالت غيبتك ، تعاهدنا ان نفترق وان نجتمع مرة ثانية ، ونتزوج ، سابقى عازبة ، ولن اسمح لشاب مهما كان قدره ان يحدثني حديث الزواج او ان يحاول التقرب مني .

وصلت الباخرة الى اميركا ونزل امين الى البر مع النازلين الذين كانوا من كل جنس ولون . واختلط اللفظ بلغات عديدة لا يعرف امين واحدة منها . واخذ كل واحد يتجه لصوب . وفرح الوصول على وجوه الجميع ، الا امين فقد احس بانقباض في قلبه . ثم حمل اغراضه على ظهره ومشى في شارع على غير وعي .

— الى اين اذهب ؟ من يدلني ؟ من يفهم مني ؟ لو كنت اعرف لغة هؤلاء البشر . المارة تنظر الى . هل وجدوا في شيئاً غريباً ؟ هل عرفوا انني غريب ؟ لماذا يضحكون ؟ يضحكون مني لاني احمل اغراضي على ظهري ؟ وماذا افعل ولكن هذا فراشي وهذا صندوق ثيابي وفيه علبة التين المطبوخ ومخرز النبيذ ، وكيس البرغل وحاجات كثيرة حملتني اياها امي . ولقد قال لي جارنا الاسبنيولي : هذه الحاجات غير موجودة في اميركا . وتستطيع ان تفتخر باقتنائها .

ظل امين ماشياً في ذلك الشارع ما يزيد على الساعـــة . كان يفتش في وجوه المارة عن وجه لبناني ليسأله سؤالا : «انا لبناني . وصلت اليوم . لا اعرف احداً . انت اول واحد رأيته . وحياتك لم اعد اقوى على المشي . هل بامكانك ان تأويني هذه الليلة . هذه الليلة فقط . اعطيك علبـة تين مطبوخ . اعطيك كيس برغل . اعطيك مخرز نبيذ . هذه الحاجات من لبنان » . وتعب امـين من المشي دون ان يرى لبنانياً واحداً . فوقف عند عمود من الاعمدة وانزل الحمل عن ظهره وقعدعلى الارض يستريح . وراح اثناء ذلك يحاول ان ينسى مجيء الليل والنوم بالتفرج الى الناس في رواحهم ومجيئهم . وفي قاطرات الكهرباء التي تعج بالركاب . وباعـــة الصحف الذين يتسابقون من رصيف الى رصيف . ثم احس بقواه تنهار من كثرة التعب . تعب السفر والمشي والفكر والضجيج . فغفى متكئاً على اغراضه .

وعندما هبط الليل . خفت الحركة . وافتتحت دور الرقص وعزفت الموسيقى فافاق على آلات طرب صاخبـة فانتفض مذعوراً واستجمع افـكاره وراح يتفقد اغراضه فوجدها كاملة . وبحث عن جهة اصوات الموسيقى فاخـذه العجب . لقـد رأى « صالة » واسعة تعج بالناس وتتلألأ فيها الانوار وفيوسط الصالة جماعات من النساء والرجال يرقصون . فلفت نظره لباس المحتفلين وطريقة رقصهم واحمروجهه لمرأى الاجسام نصف العارية فادار ظهره وعـاد الى اغراضه يتفقدها . وبيـنما هو كذلك اذ بيد تربت على كتفه :

— هاي .

— نو . نو . بنيور .

— انت لبناني ؟

— هاه ... ها ... لبـ ... لبناني يا سيدي .

— لا تبكي يا اخي . هذه هي الغربة منذ عشرين سنة كنت في هـذا المكان الذي انت فيه . كانت حالتي كحالتك . لكنني لن ادعك تنام على الارض مثلما نمت انا تلك الليـــلة .

وكان بيت الرجل على بعد عشرة امتار ، فدخلا معاً اليه .

— ضع الاغراض هنا ، واجلس على الكرسي . ساتيك بفنجان شاي انت تعب .

— اشكرك يا سيدي انا خجل منك .

— روزا . عندنا زائر الليلة . لبناني وصل اليوم .

— زائر ؟ كل يوم زائر لبناني ؟ انتم الرجال . آه .

— مساء الخير يا سيدتي . اعذريني يا سيدتي . ازعجتكم الليلة . لكني وصلت اليوم . وانا لا اعرف احداً هنا . ولا افهم لغة البلاد .

— اهلا وسهلا بك . ولكن . اتريد الحقيقة ؟ اني اتألم كلما ارى لبنانياً جديداً في هذه البلاد .

— الا يمكن ان اجد عملاً هنا ؟

— قصدي ان الناس اصبحت اليوم غير قانعة بشيء . كل لبناني يريد ان يهاجر ويغتني . كاننا نأتي الى هنا ونلتقط المال في الطرق .

— انا اضطررت ان اهاجر الى هنا يا سيدتي .

— وماذا تنوي ان تعمل هنا ؟ هل لديك رأسمال ؟

— والدي رهن البيت لاجرة السفر .

— وماذا كنت تعمل في الوطن ؟

— عندنا ارض نزرعها قمحاً . وبيتنا مشهور بشيل القز .

— يعني انت تفكر بزرع القمح وبشيل القز ؟

— اذا وجدت مثل هذا العمل فانا « سيدها » .

— هه ... هه ... هه ...

— تفضل فنجان شاي . انا قبل زواجي كنت طاهياً .

— اشكرك يا سيدي .

— كيف وجدت شاي محسوبك ؟ انا والله . آ . نسيت اسألك عن اسمك .

— داعيك امين الدالات . ابن موسى ضاهر الدالات . من «بلانه».

— ابن موسى ضاهر الدالات . موسى ضاهر الدالات . من «بلانه» ساحاول ان اتذكر . عشرون سنة وانا غائب عن الوطن . وبالرغم من ان «بلانـه» تبعد عن جوار الحوز مسافة طويلة . فانا اظن انني اعرف والدك .

— ما اسم حضرتك يا سيدي ؟

— انا يوسف غنطوس الملقب بديك جوار الحوز . لاني كنت في شبابي ديكا انت تجدني الآن عجوزاً . فليخبرك والدك عن ديك جوار الحوز . لا بد انه يعرف عني الشيء الكثير . كنت انزل الى القرى ايام الاعياد فتأتي الناس للتفرج علي . واحت ايامنا !

— هل تذكرت والدي ؟

— الاسم ليس غريباً عني . موسى ضاهر الدالات . هل كان يتعاطى تجارة القز؟

— ولم يزل يتعاطى هذه التجارة . اذن انت تعرفه ؟

— كان يركب بغلة اسمها الدهماء ؟

— عمرك طويل يا سيدي . ما اجمل الصدف .

— ابوك رجل طيب . محبوب . كيف همته . هل هـو محتفظ ببعض شبابه او مشـــلي ؟

— الدولاب عندمــا يدور يا سيدي بالمقلوب . انت تعرف والدي في حرب ١٩١٤ كل الناس احتاجت ما عدا والدي فكانت الخيرات في بيتنا . لكن عندما يقسو الدهر يقصف الظهر .

— ان شاء الله يا امين تنجح في هذه البلاد ويعود بيتكم افضل من السابق .

— الله يحفظك يا سيدي . ويكثر من امثالك .

— آه . لقد ذكرتني بيوم فكرت بالسفر واختليت بوالدي تحت سنديانة الدير وقلت له بودي السفر يا ابي . هل تمانع ؟ الله يرحمك يا ابي . فلقد رأيته يكاد يختنق ثم تنهمر دموعه بغزارة على وجنتيه وعبثاً حاولت امي ان تغير فكري . وعبثاً حاول الاهل والاصدقاء وان انس لا انس ساعة صفرت الباخرة وانطلقت تشق البحر وانا واقف على احدى جوانبها وقد التصقت عيناي بعيني امي التي هدها سفري وقد سمرت في ارض المرفأ وهي تستعطفني بان اغير فكري .

— الا تفكرون بالوطن اجدني بشوق محرق لضيعتي .

— الضيعة . انها لاعذب كلمة عندي . ان صورها لتمر امامي الآن . الصنوبر الكرم ، العرزال ، العين ، دق جرس الكنيسة . وحياتك احك لي عن الضيعة عن اهلها ، عن سهراتها ، عن صيفها ، عن شتائها ، الا تزال فيها الحياة كالماضي ؟

— منذ سنتين يا سيدي جاء الى الضيعة مصور اجنبي . اتعرف ما هي الصور التي التقطها؟ لقد صور عرزالا عتيقاً مهجوراً وصور سنديانة الدير ، الدير وحورات الساقية ، وعليقة «مهيشه» ، وجب لزان ، وقلعة مرتفعة اسمها قلعة الناطور ، والناطور وعصاه ، ودالية ، وبطمه عليها عيدان الدبق وعليها كم عصفور «مقندش» وصورة ، اتعرف صورة من يا سيدي؟ صورة عبدو الحطاب وعلى ظهره حمل كشح ، وصورة هذه الصورة اغضبت الناطور وهدد الاجنبي لاجلها بتكسير آلته . صورة مريم وحنه ولطيفه بنات جرجس حنا يغزلن الصوف ، وصورة . هذه اضحكتني كثيراً . صورة الشمس عند الغياب ، كأنه يا سيدي لم ير الشمس في حياته . واشياء نسيتها مثل البقرة والحمار . بقرة وحمار وعنزه يا سيدي . ولكن صدقني ربما ضحكت مني بدورك . اني مررت بعدة بلدان . رأيت فيها كل قصر اكبر من بلانه . ورأيت الطرق العريضة الطويلة والدكاكين التي تملأ العين . لكني لم اشعر تجاهها باي شعور . كأنها صور على ورق . ان في جبلنا حياة وجمالا لا يعرفها المرء ولا يدرك مقدار قيمتها الا اذا رأى غيره من البلدان . احس الان بحب

لوطني ، لضيعتي لا يعادله حب .

— يقولون يا امين البعد ينسي . وهذا المثل فيه بعض الحقيقة ، وانا وصلت ولا احمل شيئاً الا املي بايجاد المال في اول قدم اطئه من ارض اميركا . وهذه البناية الكبيرة التي نحن فيها ومبلغ المال الذي في حوزتي والذي لا يستهان به ، هو ثمار تعب وجهاد عشرين سنة ، اجمل ايام شبابي ولكن لن ابقى هنا . ولن اترك هذه الثمرة التي قطفتها لهذه الارض التي تغذت من دمي وعافيتي وشبابي ، ساحمل هذه الثمرة في يوم قريب الى وطني الى ضيعتي التي ان نسيتها في بعض ايامي ونسيت اهلي ورفاقي بدأت اليوم اتذكر كل شيء ، وبدأت احن لبيتنا الذي ابصرت النور فيه . ساعود واسكن بيتنا العتيق ، واعب بيدي من العين، واملىء جرابي زيتوناً وخبزاً واذهب الى «الحرشات» وانام تحت صنوبرة ليداعب شعري ووجهي الهواء . آه لقد آلمتك يا امين ، كان علي ان لا اذكرك بشيء ، انت اتيت للعمل ، ساجد لك عملاً منذ الغد .

وها هو امين في اليوم الثاني يدور في الشوارع من بيت الى بيت على عربة مناديا على بضاعته بلغة اهل البلاد . ويعود في المساء الى غرفة حقيرة استأجرها فيما بعد . يعد غلة النهار ويضعها في بطانة فراشه ، وانقضت ايام وشهور . واذا به بعد سنة ونصف السنة يفتح دكاناً صغيراً . وبعد اربع سنوات ، يبيع الدكان وينتقل الى مقاطعة ثانية . وفي كل رسالة يكتبها الي اهله يذكر لهم رجوعه الى الوطن : «لن تطول غيبتي . اني موفق والحمد لله . وفي اول فرصة سأكون عندكم وفي كل رسالة يسأل عن سلمى : هل زارتكم اليوم سلمى ؟ كيف هي ؟ هل طلب يدها احد ؟ اياكم انتدعوها تتزوج ، لنتطول غيبتي . لقد وعدتني بانها ستنتظرني. هنا في اميركا البنات مثل شتاء كانون . وكلهن جميلات وغنيات لكني لن اتزوج من غيرها وارجو ان تكتبون لي عنها كل اسبوع .

وكرت الشهور سراعاً . وامين ينتقل من مقاطعة الى مقاطعه . وكان همه الوحيد جمع المال . فالصحة وشم الهواء والراحة اشياء نادراً ما يفكر بها . ولقد حدث ان فتيات كثيرات حاولن التقرب منه :

— دعيني وشأني يا آنسة . كل شيء الا الحب . لان بعد الحب الزواج .

— اتريد ان تبقى عازباً ؟

— لن اتزوج ما دمت هنا .

— انت تخالف شريعة الله . لماذا خلق الله حواء ؟

— انا على وعد يا آنسة !

— انت تكذب . لقد قلت لصديقتي البارحة انك على وعد .

— واي كذب في ذلك !

— اراهن ان قلبك فارغ .

— اني مرتبط .

— بمن ؟ اريد ان اعرف هذه الفتاة التي تعيش في برجها العاجي .

— هي هنا وليست هنا بنفس الوقت .

— اذا كانت هنا فلماذا لا اعرفها ؟

— انها هنا في قلبي . وهي بنفس الوقت في الوطن .

— اين هي ؟ ماذا تقول ؟

— ان فتاتي في الوطن .

— في الوطن ؟

— نعم في الوطن ، وهل في ذلك ما يدعو للعجب والدهشة ؟

— في الوطن . مسكين . اني اشفق عليك . وهل تظن انها تنتظرك ؟

— بدون شك .

— هي تصلي وتنتظر ، اليس كذلك ؟

— لماذا لا تكون هي مثلي ؟

— هل تركتها من مدة طويلة ؟

— منذ سبع سنوات .

— ماذا ؟ آه انتم اهل الشرق تعيشون في الخيال .

لقد لاقى امين زيادة عن التعب والجهد الكثير من الحرمان . كل ذلك ليكون اميناً للوعد الذي قطعه لسلمى .

ويا لهول تلك الساعة التي سمع فيها امين ان السنة نار الحرب اندلعت . كاد يجن . فعل كل الامكانيات لاخذ مأذونية بالسفر الى الوطن فلم يستطع . لقد قطعت المواصلات .

— ترى ما جرى لسلمى ؟ هل تمتد الحرب الى لبنان ؟ هل تعود ايام الحرب الاولى ؟ لا ، لن تموت سلمى من الجوع . اني ارسلت كثيراً من الدراهم لاهلي . سيعطونها من مالي ان هي احتاجت . ستدوس ارض وطني وضيعتي اقدام الجيوش الاجنبية ؟ سيفتك الجند بالاهالي ؟ سيعتدي عليها احد الائمة ؟

مرت سنة من الحرب وتبعتها سنة ثانية وثالثة ، ولم يكن من امل بالسلم القريب . وضج رأس سلمى بكلام الناس .

— هذه حرب من يدري متى تنتهي ؟

— ربما مات امين ، ربما ضاع ، ربما فقد ثروته ، ربما تزوج .

— وانت كبرت الان ، الفتاة التي تكبر دون ان تتزوج تشمت بها الناس ، ويختلقون منها الف قصة وقصة .

— يجب ان تحافظي على سمعتك وكرامتك . على سمعة البيت وكرامة اهلك . انت ذكية وليس من الضروري تذكيرك بمثل هذه الامور .

— وعلى كل حال لقد انتظرت اكثر من اللزوم .

— من ينتظر عشر سنوات ؟ أأنت مجنونة ؟

— كل الشبان الذين يطلبون يدك لا ترضي باحدهم ؟ امين وحـده هو الرجل الذي يصلح للزواج ؟

— حطمي هذه القيود التي تلجم حريتك . ان المستقبل والحياة لك .

— لا تدعي العاطفة تتملكك . العاطفة تقتل. حكمي عقلك واخرجي للهواء. وارغمت على الزواج . فتزوجت .

وانتهت الحرب وكان اول من وصل الى الوطن من المهجر هو امين الدالات وصل حاملاً بين يديه ضمة من الاقاح اليابس وكان طـوال ايام السفر يسقيها من دموعه . دموع الفرح . فرح الرجوع وفرح امل اللقـــاء بسلمى وفرح التوفيق بجمع المـال . لم يصدق انه وصل الى الوطن . لم يصدق انه في الضيعـة يدخل الى البيت . واول ما يسأل . يسأل امه .

— سلمى اين هي ؟ ناديها . مالك؟ وحياتك سأخبركم بكل شيء بحضور سلمى.

— سلمى تزوجت يا امين .

— تكذبون علي .

— ولما كل هذا الاهتمام بها ؟ تزوجت ولم تسأل عنك .

واستيقظ امين في اليوم الثاني قبـل الضوء وخرج من البيت دون ان يلتفت الى احد ، وانطلق الى البرية وكان الربيع في الضيعة بساطاً مفروشاً من كل لون على التلال والاودية والمنبطحات لم يتغير ولم يتبدل عما قبل وكانت صيحات الديوك تنتشر في الفضاء بشارة الضوء فانحنى امين على الارض ، يدغدغ شعره النسيم الرطب يقطف ضمة من الاقاح . ولما اكتملت بين يديه حملها واتجه نحو بيت سلمى ووضعها امام الباب . وعاد يمشي في الحقول ويفتش عن ذكرياته ...

وكيل مار يوسف

– «شفناك ... شفناك ... يللي بالكرمات ... يللي بالتفاحات ... »

هذا صوت «الاخ شربل» او «خي شربل» كما يناديه ابناء قريتــه يسمعه اهالي الضيعة من الفجر الى العصر . ومن يسمع هـذا الصوت مرة واحـــدة يدرك ان الحنجرة التي تطلقه تعاني بحة مؤلمة من كثرة الصراخ والترديد .

والاخ شربل حارس دير مار يوسف وعدو اهالي الضيعة رقم واحد ما رأيتــه مرة الا في تلك الجبة العتيقة الممزقة وتلك القلنوسة التي شوهها العث وتراكم عليها العرق والوسخ . وزنار جلد عريض يلف به وسطه ويربطه بحلقة حديدية ضخمة ، علامة الكدح والعمل .

و«الاخ شربل» ليس كاسياده الرهبان اصحاب البطون المنفوخـة ، فهو رقيق البنية ولكنه فولاذي العود لا يعرف جسمه التعب ولا الملـل . فهو يستيقظ قبل الضوء فيحلب البقرات ويهيء الترويقة للرهبان ثم يذهب للسوق ويشتري اللحـم وباقي الحاجات ويعود الى عمـــله ، ينقب الارض ويسقي المزروعات ، او يقطع العفص والسنديان للبقرات .

وحوالي الدير جنائن وكرم كبير وارض شاسعة لا يمكن للعـــين ان تطال اطرافها جهة الاودية والمنعطفات لكن الاخ شربل وجد طريقـــة يستعين بها لحراسة كل الاملاك . وهذه الطريقة هي بان يصعد من حين لآخر الى رابية ويطلق لصوته العنان .

– « شفناك ... شفناك ... يللي بالكرمات ... يللي بالتفاحات .. »

فاذا كان هناك من سارق سمع الصوت وهرب . واذا لم يكن من احد انذر

الصوت كل من تحدثه نفسه بالتطاول على املاك الدير .

ويقول الاخ شربل لاهالي الضيعة بان هـذا الصوت هو صوت مار يوسف . والويل لمن يمد يده الى تينة او حبة عنب او الى حجر صغير من ارض الدير فيده اذا لم تقطع حالا فلن تطول حتى تيبس . الدير وكل ما للدير هو ملك مار يوسف يجب ان يزداد ولا ينقص .

والواقع ان املاك الدير كانت تزداد على التوالي . فالمرأة الحامل تنذر لمار يوسف ليرزقها ذكراً . والرجل ينذر لمار يوسف ليغل الكرم او الزرع او موسم الحرير . والنذر اما بمبلغ من المال يهدي للدير او قسم من الغلة او قطعة من الارض .

والاخ شربل يعد نفسه وكيل مار يوسف في هذا الدير وهو مؤمن بذلك اشد الايمان . فعبثاً اقناعه بان مار يوسف كان نجاراً فقيراً يعيش من مهنة النجارة يزاولها طول النهار كاداً مجتهداً . وهو اليوم بغنى عن كل ماديات الارض . فتثور لحيته الكثة وينفجر داعياً لاصحاب هذا الرأي بجهنم الحمراء .

واذكر حين كنت طفلاً في السابعة من عمري انني حاولت مرة ان اجمع سلة من الحشيش الاخضر لاطعم منها اراني وكنت مولعاً في ذلك الوقت في تربيتها . وما كاد يراني الاخ شربل منحنياً فوق ارض الدير حتى صرخ بي من على الرابية :

— « جاي تسرق حشيش الدير ، مار يوسف يقطع ايدك ، تاكلك جهنم »

وكنت انتظر سماع صوته . وكانت يداي وانا احاول قطع الحشيش ترتعشان وعيناي تدوران حولي خيفة من يد مار يوسف ان تمسك بي . وعندما ضج في اذني صوت «خي شربل» فقدت وعيي واذا بي اترك السلة في ارض الدير ، واطلق ساقي للريح هارباً جهة البيت يملكني الرعب ويعلو وجهي الاصفرار .

منذ ان جاء الاخ شربل الى الدير لليوم انقضت ثلاثون سنة ، كان خلالها الوكيل الامين لمار يوسف . لم يعرف الدير سرقة واحدة ، بل لم ينقص من غلة الدير تينة او حبة عنب واحدة ، وكان مؤمناً بانه وكيل مار يوسف فلم يجمع

قرشاً واحداً لجيبه الخاص .

ومنذ سنة ، سنة واحدة . بدأ الاخ شربل يشعر بالعجز . وبان الرابية التي كان يصعد اليها لتهديد اهالي الضيعة ، لم يعد باستطاعته الوصول اليها ركضاً بل مشياً بطيئاً وعلى عكاز يتكيء عليه . وانه في حالته هذه لا يمكنه القيام بالواجب المترتب عليه . فركع ذات مساء امام صورة مار يوسف في الكنيسة وبعد ان صلى سبحته ووعى ضميره وجمع افكاره نظر الى مار يوسف وعيناه تدمعان وقال يخاطبه :

– لست ادري يا مار يوسف كيف اخاطبك ولا اذا كنت استحق الوقوف امامك والتحدث اليك . ولكني اشعر باني كنت امناً ومخلصاً لك وللدير . واني لفخور وانه لشرف عظيم لي باني كنت وكيلك طيلة ثلاثين سنة . وانه ليؤلمني جداً ان اكون وصلت الى ما وصلت اليه من العجز والضعف وان ارى نفسي عاجزاً عن القيام بالواجبات المترتبة علي .

وبكى الاخ شربل واخذ يشهق كالطفل ولم يلبث ان نهض واتجه نحو غرفته . كان بوده ان يبقى في الكنيسة امام صورة مار يوسف اكثر من ذلك . وان يسأل مار يوسف عن اسباب عجزه . بل كان يود ان يبقى للصبح راكعاً يصلي لعل مار يوسف يظهر اعجوبة به فيرى نفسه متعافياً قوياً كانه في عهد شبابه . لكن شيئاً خفياً لجم افكاره واخرجه من الكنيسة مستسلماً للواقع . خرج من باب الكنيسة ورأسه مثقل ودموعه تنهمر ، كانه ذاهب لملاقاة نهايته .

وظل طوال تلك الليلة جالساً في فراشه يصلي . فلم يسمع له شخير ، كعادته كل ليلة من كثرة التعب بل وشوشة متحشرجة متواصلة وحس احدى يديه من حين لآخر يضرب بها صدره .

واستولت الدهشة على بعض اهالي الضيعة الذين ذهبوا يوم الاحد لسماع القداس في كنيسة مار يوسف ، عندما وجدوا الاخ شربل جالساً بينهم ، وان اخاً جديد « يخدم » القداس . فتبادلوا النظرات وعلامات الدهشة والاستغراب وانطلقت الوشوشة بين النسوة ..

وبقين طوال القداس يشرن بعضهن لبعض ويهمهمن حتى اذا ما انتهى القداس خرجن الى الطريق بانتظار الرجال الذين ظلوا يتمشون في رواق الدير يعلقون على الحادث .

وكانت نتيجة تعليق رجال الضيعة ان الدير لن يجد اخاً كخي شربل يحافظ على مصلحة الدير .وخلصوا الى القول ان الاخ شربل بالرغم من تدابيره القاسية وطاعته لضميره وواجباته كان دائماً حجر عثرة في التفاهم بين اهالي الضيعة والدير .

ولم يكد يطل الاخ الجديد من باب الكنيسة حتى انفرجت اسارير اهالي الضيعة عن ابتسامة عريضة. فتسابقوا منحنين مصافحين الاخ مقدمين له اعذب الفاظ الترحاب. وبعد لحظة جاء رئيس الدير وقدمهم للاخ واحداً واحداً . ثم التفت اليهم وقال:

– اقدم لكم الاخ شعيا الذي ارجو منكم مراجعته في كل ما يتعلق باملاك الدير.

قال هذا وانصرف. اما الاخ شربل فقد بقي وحـــده بالكنيسة يصلي كأنه لم يحدث شيء .

ولم يمض سنتان حتى بدأ الدير يشعر بنقص في مادياته ، ذلـك ان الاخ الجديد لا يشتغل بيده ولا يقوم بحراسة . فكل ما يعمـله هو خدمـة القداس والاشراف ساعات في الاسبوع على العمال الذين يشتغلون في الاملاك . ولقد ادخل هذا الاخ الجديد عـلى الدير حياة جديدة ذلك انه منذ وصوله بدأ يتعرف عـلى اهالي الضيعة ويزور البيوت ويدعو بعض الناس الى مائدة الدير ويرسل الهدايا للبعض الآخر من غلة الدير ولم يلبث رئيس الدير وبقية الرهبان ان تبعوه في « الحياة الجديدة » فقد شعروا بلذة اخرى غير لذة الصلاة والاعتكاف . لذة الاختلاط بالناس ومشاركتهم في حياتهم فتعلموا منه لعب الطاولة ولعب الورق واصبح مار يوسف يسمع زيادة على حس حبات المسبحة . وضرب الايدي عـلى الصدور ، حس احجار وزهر الطاولة وضرب الايدي على الطاولات .

ومن الطبيعي والحالة هـذه ان تهمل املاك الدير وان تتطلب المعيشة في الدير

نفقات اكثر من قبل بكثير . حتى وجد رئيس الدير نفسه اخيراً مرغماً على بيع بعض الاراضي ليتمكن من تسديد النفقات وتحسين ما يمكن تحسينه من العقارات المهملة والحدائق اليابسة . فاخذ يبيع من الاملاك قطعة بعد قطعة محاولا ان يجعل للدير ميزانية مالية ثابتة .

وفكرة البيع لها حسناتها ولها سيئاتها . من حسناتها انها فتحت لاهالي الضيعة مجالا للشراء والتوسع. وللرهبان الاستفادة من المال لتحسين العقارات التي يؤجرونها في فصل الصيف وزرع الاراضي الباقية ومن سيئاتها انها نذير شؤم للرهبنة التي تأسست وغايتها الصلاة والتعبد لله والانعزال عن البشر واصبحت اليوم كبقية البشر سواء بسواء لا فرق الا ان الرهبان يأكلون ويشربون دون جهد ولا اجتهاد والبشر يأكل ويشرب بذرف العرق والدم .

والاخ شربل منذ ان اعتزل مركزه لا يخرج من الدير ابداً ، وقد جاء اليه رئيس الدير مرة وسأله عن رأيه في البيع فادار ظهره ومشى يتابع صلاته كأنه لم يسمع شيئاً .

ونادراً ما يدنو من الباب الخارجي الضخم ويدور بناظريه في املاك الدير ولا يلبث ان يعود الى غرفته قافلاً الباب بجميع قواه محدثاً بذلك ضجة رهيبة تدل على حنق الاخ شربل وغضبه ، وتتردد في رواق الدير الفسيح .



بساط الرمل

خرجت سهام من البيت كعادتها كل يوم الى السوق لتبتاع بعض الحاجات لطعام النهار ، ولفت نظرها وهي مارة في شارع المعرض في بيروت ، رجل متربع على الارض وامامه بساط صغير مفروش بالرمل ، والى جانبه سيدة جلست القرفصاء تحدق اليه بكل اهتمام ، وعندما حاولت سماع ما يقوله هذا الرجل القبيح السحنة ذو اللحية الكثة والعينين اللتين تقدحان شرراً ، والوجه الاسود المجعد ، والصدر العاري ، تطلع اليها الرجل واشار الى ان تقف فوقفت . وعندما انتهى وضعت السيدة في يديه بعض المال ومشت . فلحقت بها سهام وسألتها متلعثمة :

– لقد طالما سمعت عن هذا الرجل فهل ما يقوله صحيح ؟

– هل في قلبك شيء ؟

– لا . هو سؤال . ليس الا .

– اذن لا فائدة من الجواب ، لكن ما بال وجهك يزداد احراراً ؟

– ظننت انه يعرف المستقبل .

– ما هو عمرك ؟

– سبعة عشر عاماً .

– سبعه عشر عاماً . اذن انت عصفور اكتمل جناحاه .

– ما تعنين في ذلك ؟

– انت تفكرين بالانطلاق من العش والتحليق في الجو ، والتنقل على افنان الشجر ؟

– وهل حلقت انت في الجو وتنقلت على افنان الشجر ؟

– وهل ثمة مفر من ذلك ، هي الحياة . ولكن هل نبهك احد ؟ ان في التنقل لاخطاراً كثيرة .

– وما هي هذه الاخطار ؟

– الا ترين جناحي الايمن مكسوراً ؟

– لا ارى شيئاً .

– اين تنظرين ؟ قلبي محطم

– وماذا افعل لاجتناب المخاطر ؟

– ان على الشجر عيداناً من الدبق . فاذا كنت غبية مثلي ، فسيتحطم قلبك . اياك ان تحطي على عود من هذه العيدان لا تعرفين صاحبه تمام المعرفة . واياك ان تغرنك الشجرة بجمالها او بعظمة كبرها وجنسها وموقعها . فقد يكون صاحب العود الذي تعلقين عليه قاسي القلب لا يقصد من صيده العصافير الا اكل اللحم . فينتف ريشك ويأكل لحمك وعظمك معاً .

– وماذا قال لك الرجل . هل هو قاسي القلب صاحب العود الذي علقت عليه؟

– لقد قال لي اليوم بانني سأتسلم منه رسالة عما قريب . وفيها ما يسرني ويبعث فيّ الامل من جديد .

– وحياتك . اخاف ان اقف وحدي امامه . اريد ان اعرف مستقبلي .

وعادتا اليه وجلستا القرفصاء امامه تستمعان اليه بكل اهتمام :

– انت . رحمتك يا الله ، انك القدير على كل شيء . كيف اخفي عنك ما اراه ان لم اقل فسينزل بي الله اشد العقاب .

ثم ينظر الى السيدة ويسألها وهو يرتعش :

– هل اقول لها ما اراه ؟ عليّ ان اصارحها . اخلص حياتها يا سيدتي .

فنفرت الدمعة من عيني الفتاة وانحنت عليه متوسلة :

– وحياتك لا تخفي عني شيئاً .

– حياتك في خطر يا ابنتي . انظري . انظري هنا ... هنا ... هذه عين الحسود . الله اكبر . لعنة الله عليها . انها كبيرة واسعة عميقة . ان في جوفها الف شيطان . رحمتك يا الله . انت على كل شيء قدير . أبعد الخطر عن هذه الفتاة البريئة الطاهرة هذه الفتاة التي لم تعرف الاذى ، انها تؤمن بعظمتك وبقدرتك ، كسر هذه السيوف المسلطة عليها من عين الحسود ، رد عنها هذه العيارات النارية المصوبة اليها من عين الحسود الشريرة .

ولم تعد سهام تقوى على سماعه فتراخت على صدر السيدة مغمى عليها . فاخذ الرجل من جرابه في الحال عطراً غريب الرائحة وقربه من انفها فاستنشقت وهي تتنهد كمن هد قواه . ثم قال الرجل للسيدة .

– لا خوف عليها الان . وان عندي ما يبعد عنها خطر عين الحسود . سأحضر لها الدواء غداً .

– وما هو الثمن ؟

– هذا الدواء نادر الوجود يا سيدتي وانا لا أضع قرشاً واحداً في جيبي . انا اعمل لوجه الله .

– شكراً .

عادت سهام الى البيت مضطربة الافكار قلقة ، لم تجرؤ ان تخبر امها بما حدث لها في بادىء الامر . لكن الهواجس ما زالت تدور في رأسها وتتراءى لها أينما نظرت عين كبيرة ، واسعة ، عميقة حمراء كأتون نار ، وسيوف مسلطة عليها وعيارات نارية مصوبة اليها من جوف هذه العين . فترتعش وتحاول ان ترى الاشياء كما هي فلا تستطيع .

– امي هل صحيح ما يتنبأ به السحرة ؟

— يقولون انهم يعرفون كثيراً من امور المستقبل والاسرار .

— هل يعرفون المستقبل ؟

— انا اخاف منهم يا ابنتي . يقولون انهم يتصلون بالشياطين وكل ساحر له شيطان يرافقه ويأتمر باوامره .

— وهل للشيطان القدرة الالهية لمعرفة المستقبل والاطلاع على الاسرار ؟

— عفوك يا الله . ما هذا الحديث ؟ وما هذه الاسئلة يا ابنتي ؟

— انا خائفة ؟

— خائفة ؟ والسبب ؟

— لا اعرف .

— أليس هناك من سبب ؟

— هل تعتقدين بوجود عين الحسود ؟

— بددي هذه الافكار يا ابنتي واتكلي على الله .

— ولكني خائفة .

— ماذا تقولين . هل ضحك منك احد ؟

— اليوم . صباحاً . اتعرفين الرجل الذي يضرب بالرمل ؟ رأيت سيدة الى جانبه وكان يطلعها عما سيحدث لها في المستقبل ولقد اطلعني بدوري على مستقبلي، وقال ان حياتي في خطر ، ودلني على عين كبيرة واسعة عميقة حمراء تحدق الي وفيها سيوف مصلطة علي وعبارات نارية مصوبة الى صدري وقال انها عين الحسود . عين من هذه يا امي ؟ لقد اغمي علي عندما كان يدلني عليها كنت احاول ان لا اصدق لكن الخوف تملكني واحسست بشيء يشد على عنقي ويخنقني .

— اتصدقين مثل هذا الكلام ؟ أأنت غبية ؟ كبري عقلك وفكري بالله . اياك

ان يسمحي لاحد ان يقرأ افكارك او ان يضحك منك ويقول لك انني اعرف مستقبلك ، المستقبل في علم الله وحده يا ابنتي .

وسكتت سهام وهي حائرة .. أتصدق كلام الساحر ام كلام امها ؟ لقد اقنعتها امها ، لكن كلمات الساحر تختفي من اذنيها ولا تلبث ان تعود .

خصوصاً عندما تكون وحدها في البيت ، او في الطريق ، فان العين الكبيرة الواسعة العميقة الحمراء وفيها السيوف والعبارات النارية تظل دائماً قبالتها تحدق اليها ، فترتعد خوفاً ، الى ان اصبح الخوف ملازماً لها ، فهي تخاف من الكلب اذا ما دنا منها فتتخيله يهجم عليها ويمزقها باسنانه ، تخاف من السيارة اذا كانت مسرعة فتتخيلها تجتاحها وتعصرها عصراً . تخاف من الصياد وهو حامل بندقيته . تخاف من الجزار فتتخيله يذبحها بسكينه ويقطعها ارباً ارباً كما يفعل بالخروف ، وترتعب عندما تشاهد بركة ماء اذ تنقلب البركة في نظرها الي عين كعين الحسود .

وهزلت سهام من كثرة الهواجس والخوف . واصفر وجهها . وقلت قابليتها للطعام . وصارت تشك بنظافة الطبخ . وتجفل كلما رأت سكيناً على الطاولة :

— ... لا ... لن آكل . انكم وضعتم لي سماً في صحني . ستقتلونني بهذه السكين وحياتكم لا تقتلوني .

— هذا وهم يا سهام . وهم . وهم . يا حبيبتي، ويا روحي ، من يجرؤ على قتلك !

وذات يوم انقطع المجرى الكهربائي وكانت ليلة مدلهمة . فاستفاقت سهام في الليل واتجهت صوب المطبخ لقضاء حاجة ولم تكد تدخل الباب حتى ضج المطبخ بقرقعة هائلة فركضت سهام عائدة الى فراشها وقد اخذ منها الرعب كل مأخذ . واستفاقت الوالدة مذعورة واشعلت قنديل الكاز . فوجدت الهرة في ارض المطبخ وحواليها الطناجر والصحون المحطمة . وعرفت ان الهرة قفزت من الطاقة الصغيرة فوق النافذة المفتوحة الى الرف وانقلبت مع الطناجر والصحون الموضوعة بعضها فوق بعض .

وفي اليوم التالي من هذا الحادث تغيرت حالة سهام تغيراً خطراً . وراحت تتكلم بدون وعي تارة تهدد وطوراً تتوسل . تارة تضحك وطوراً تبكي . وفي اليوم الثالث بدأت تمزق ثيابها وتحاول الهرب خارج البيت وهي تصرخ :

– لقد انهار الحائط علي . سيقتلونني ياي .. ياي .. لقد انهار البيت على رأسي .

وعبثاً يحاول الاهل افهامها ان الحائط لا يزال كما كان والبيت لم يتغير فيه شيء .

وفي اليوم الرابع أغلقت سهام فمها وظلت ترفض الاكل اسبوعاً كاملا . فضعفت كثيراً وانهارت قواها . رجلست في فراشها لا تستطيع ان تبرحه ولا يغمض لها جفن . هي دائماً خائفة . انها تتخيل اشياء كثيرة تهددها بالموت :

– هذا سيف ، سيقتلونني به . لا .. لا .. انا خائفة . دافعوا عني .

– هذه حفرة في الحائط يا سهام . انظري جيداً . هذا تراب .

– تكذبون علي .

وكان رأي الاطباء اخيراً بادخالها الى مستشفى العقول . وبعد شهرين من المداواة على احدث الطرق ، استرجعت سهام وعيها الكامل الذي فقدته طيلة ثلاثة اشهر بسبب خرافة رجل يوهم الناس انه يعرف ما هو لله فقط .



التوبة

ما اشبه ذلك اليوم الذي تركت فيه لميا القرية بهـذا اليوم الذي تعود فيـه . تسع سنوات مرت . كان الفصل ربيعاً يشبه هذا الربيع جمـــالا وعنفواناً . كان شعرها يتطاير مع الهواء ، وعيناها تتأججـان في وجهها العابق بالدم الاحمـر شهوة وثورة . كانت سريعة الخطى لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، وكانت تشعر بان الطريق لها وحدها وبانه لن يعيق سيرها عائق . كانت الامال في رأسها كالبحر الزاخر . فتسرع وكأن قوة خفية في اعصابها ودمها تدفعها الى صور متعددة مختلفـة تتخيلها امامها تتراقص وتتزاحم وتتسابق نحوها : سيارات جديدة تفتح ابوابها وتلمع ، وقصور تعربد انوارها ، ومراقص تلفظ الالسن فيها غناء ، ومسارح يتنافس فيها جمـال الصدور والسيقان ، وصالات واسعة تعرض فيها افـــلام الحياة ، وخزائن تعج بالثياب الجميلة من مخمل متأنق وفرو ارستقراطي ، والقبعات المزركشة كتيجـان المجد والسلطان ، والاحذية الدقيقة الثمينة ، وعلب تزخر بالجواهر البراقة المشعشعة وطيف لم يفارقها طوال الطريق : طيف شاب وشابة يتعانقان وقد التصقا واصبحا كشخص واحد . وصور كثيرة لا عـــد لها يسيل منظرها لعاب الانسان ويأخذ بقلبه وعقـــله .

تسع سنوات مرت على ذلك اليوم الذي تركت فيه لميا القرية وتركت فيـه بيتها الحقير المتواضع للعواصف والامطار . كانت وحيدة لوالديها فبعد ان فقدتهما رأت ان لا شيء يحول بينها وبين ترك القرية ، والذهاب الى المدينة ، هذه المدينة التي زارتها منذ سنوات قليلة ، والتي قرأت عنها في الصحف والمجـــلات التي كان بعض شباب القرية يغرونها بها لاختلاس برهـة من الزمن للتحدث اليها والمكوث الى جنبها — وكانت لميا طيبة القلب غير انها كانت تتقن الفرنسية ولهـــا حديث

جذاب وجمال شرقي ساحر : قامة مديدة ، لا هي ضخمة ولا هي نحيلة ، ووجه احمر تسبح في اعلاه عينان صافيتان مائلتان للاسوداد ، وعنق طويلة تنحني بعطف وحنو على ثديين نافرين . — ولقد تعبت في هـــذا الجو الذي لم يوافق طبعها . فهذه السراويل المنفوخة رالبادات الصوفية القاسية ، والتنانير الطويلة القاتمة اللون والطرحات الغليظة . وهذه العادات التي توجب على المرأة الذهاب الى العين والى الفرن ، وتنفيذ اوامر الخوري ونصائح الخـــورية : « فستانك قصير ، بودراتك كثار ، زنودك مزلطين . » وتقاليد متعصبة لا يحيدون عنها قيد انملة ، كأنها شرائع مقدسة تقول دائماً : القديم على قدمه وكافر هو من غير فيها حرفاً .

كل ذلك وغيره حـدا بلميا الى ترك القرية . فـتركتها . ومرت تسع سنوات عليها ، وهي في المدينة ، حملت معها كل ما يمكن حمله من اسباب الحرية ، فمزقت كل ما كان يصلها بحياتها السابقة ، وحققت لها كل امل كانت تتعطش اليه . ومرت بها حيث شاءت ورجت وحيث كانت تظنه وهماً ومستحيلاً .

فمذ وطئت قدماها المدينــة التف حواليها سماسرة المراقص والبيوت الفاسدة يتنافسون في سبيل امتلاكها وتسخيرها لاهوائهم ومراميهم . ككل فتـاة تنزل الى هذه الدرجة من الحياة . وكيف بلميا الصبية الجميلة الساحرة المتعلمة العذراء ، فاشتغلت بافخم المراقص ونالت اعجاب الكثيرين ، واوقعت في شراكها شباناً لا عد لهم ، انفقوا بسببها اموالهم وخسروا شبابهم وعافيتهم . وهي معروفة بعشرات الاسماء ، فكلما انتقلت من مرقص لاخر غيرت اسمها . ولقد جمعت من المـال ما لم يجمعه تاجر حرب . ما كانت ترتدي ثوباً في الصباح حتى تخلعـه في المساء وترميه لخدمها . ولقد ابتاعت من الجواهر ما قد حيرها في اختيار الجميل الثمين منها . اما السيارات فيكفي الواحدة منها اشارة او غمزة او نظرة لتقف وتضع تحت اوامرها .

لم يكن لها دقيقة واحدة لتفكر بما تصنعه او بما هو واقع لها في غدها القريب . كانت طوال التسع السنوات مأخـوذة بلهو الشباب وعبث الحيـاة وصخب الغناء والموسيقى ، ونشوة الخمر ... مأخـــوذة باعجاب الناس بها ومتلهيـــة بخدماتهم

تكريمهم ، مسرورة بعذاب بعضهم وساهية عن الذين يعلنون افلاسهم ويمرضون بسببها . ويكفي طموحها انها عندما تصعد الى المسرح لرقصة ما تخفق جميع القلوب لها وترنو اليها العيون كلها ، وتصبح امل كل واحد .

وها هي تعود بعد تسع سنوات الى الجو الذي نفرت منـه ، الى البيت الذي اغلقت بابه وحسبت انها تغلقه الى الابد . ها هي ترتمي على فراشها تسترحمه وتستنجده .

عادت كما ذهبت سريعة الخطى لا تلتفت يمنـة ولا يسرة . لكنها ذهبت فتـاة عذراء دمها نقي احمر ، وعادت امرأة ليس لها زوج ولا ولد ، ودمها فاسد لا لون له . ذهبت صبية تنبض فيها الحيوية ويزدحم في وجهها واعصابها النشاط والعنفوان وعادت مجعدة الوجه صفراء هزيلة مريضة ترتعش . ذهبت يرافقها طيف شاب وشابة يتعانقان ويلتصقان وعادت يلاحقها بل يطاردها طيف شاب مريض ثائر ومسدس في يده وصوت قوي رهيب : يا كافرة ... يا كافرة ... يا كافرة ...

وها هو الطيف في القرية ، في بيتها ، فوق رأسها ، وها هـو المسدس ينقلب الى عشرات المسدسات تصوب اليها من كل جهة واصوات عديدة داوية تنفجر مع انفجار طلقات المسدسات : يا كافرة .. يا كافرة .. يا كافرة .. فتنكمش ليـا في فراشها على نفسها وتخفي وجهها وتصرخ كمن قذف في اتون نار .

وبعد ساعات قضتها ليـــا في عذاب مر احست بالنوم . لاول مرة منذ تسع سنوات تحس ليا انها تملك نفسها وتحس بهدوء خفيف يتغلغل في اعضائهـا وبجلباب من الطمأنينة وراحة الفكر يلفها بحرية الاختيار بين النوم والسهر . لقـد احست بالحرية وكفى منها حرية انها دعتها تنام ، ولاول مرة منذ تسع سنوات ، تنام في فراشها وحدها ، لا تضج في اذنيها الموسيقى الصاخبة ولا عربــــدة السكارى وهم يتزاحمون لدعوتها للرقص ولا شتائم المرفوضين للاشتراك معها في شرب كأس او لتمضية ربع ساعة .. انها حرة بعيدة عن كل ذلك ، تقفل اجفانها وتنام .

ونامت ما تبقى من تلك الليلة ملء عينيها .

وهبت من فراشها في الصباح وانطلقت الى الخارج ، فتلقتها اشعـــة الشمس واحتضنها الهواء البارد ، فتغلغلت اناملهُ في شعرها وثيابها وانزلقت من شق قميصها الى صدرها فبعثت فيه رعشة . وكانت الطبيعـة في ابهى حلتها الزرقـاء المزركشة بطلائع زهر الاقاح الابيض وشقائق النعمان الحمراء ولما وصلت الى النبع المتفجر من بين صخور عالية الفت المياه تحتها جارية بتواضع متقطعـة الاصوات ، اصوات خافتة كأنها وشوشة ملائكـة اطهار . فانحنت الى الارض وغطست رأسها تبلـل شعرها ووجهها وعنقها ثم اخذت تعب المـاء بيديها وتبلل جسدهـا من كل شق في ثيابها . وعندما تبللت كلها عرت كتفها المجروحـــة برصاص مسدس ودنت من فم النبـــع .



ابن الصخر

لقد انتصف الليل وبطرس ما يزال عـــلى مصطبة البيت المواجهة لبيروت ، يقيسها جيئة ورواحا ، بخطوات متزنة ولا يمكن لاي ناظر اليه ان يدرك شيئاً من اضطرابه وقلقه ، الا المصطبة تحت قدميه هي وحدها كانت تشعر وتدرك . فكان يكبت ثورة اعصابه بقدميه يشدهما الى الارض بالم خفي .

عليه ان ينزل الي بيروت ثانية . ونزل نهار امس وطلب مقابـلة احد المحامين ليسأله عما اذا كان في مكتبه متسع له . فقد نال بطرس شهادة المحاماة وعليهمزاولة هذه المهنة ثلاث سنوات للتمرين قبل ان ينفرد بعمله . فكان جواب المحـامي ان يأتي في اليوم التالي . وهذا الجواب لم يرض بطرس . ولقد سئم من هذه الاجوبة وهو يعرف ما تكون النتيجة بعدها : «آسف جداً يا استاذ ما عندي مطرح»ولقد قال له اكثر من صديق ان يفتش عن « واسطة » فهزىء بذلـــك وكانت نتيجة هذؤه الفشل .

وابتسم بطرس ابتسامة احسها ابراً تنصب في عروقه جميعا . لقد انقضىشهران وهو ينزل الى بيروت صباحاً ويعود مساء . في المقابلة الاولى : « قابلني بكره » وفي المقابلةالثانية : « آسف يا استاذ ما عندي مطرح .» ويواجه كل ذلكبسكوت عميق وصبر عجيب .

وفجأة وقف بطرس عن المشي واقترب من حجر في زاوية المصطبـة وجلس عليه . واخذ يمر بيده على جبهته محاولا ان ينسى كل شيء . « لا لن اقف هنا . لن اقف بعد ان قطعت شوطاً كبيراً من طريق هدفي . سأخلقه هذا « المطرح » من العدم اذا كنت لن اجده عند حضرات الاساتذة المحامين. ان ايماني بالوصول للهدف لن تزعزعة يد محامي « آسف يا استاذ ما في عندي مطرح »

وضحك بطرس ضحكة تجاوبت اصداؤها في جوانب صدره . ضحكـة شعت ايماناً بعينه وسخرية على شفتيه ونهض تواً الى فراشه ونام ملء عينيه .

واستيقظ عند صياح الديك فلفته خيوط الضوء التي شرعت تتطاول وتمتد من النوافذ . ففتح الشباك متلقياً بوجهه انفاس الصبح المنعشة . وبعد دقائق قليـلة استيقظ والده وخرج الى الحديقة ينقب «جل» الخضر التي انقضى موسمها ليذرع عوضها «شتل» الملفوف . فسمع بطرس حس المعول بيـد والده فتحرك الحنين في قلبه ، الحنين الى الارض ، الارض التي نشأ عليها طفلاً واعتنى بها مع والده يافعاً وتذكر :

– « بطرس ! بطرس ! اين هو ؟ روزا ! روزا » .

كان والده في ذلك اليوم في الحديقة يعالج صخراً كبيراً . يريد اقتلاعـه فلا يستطيع ، يضع المخل تحتـه ويشد بكل قواه فيرتفع الصخر قليـلاً ثم لا يلبث ان يعود فيسقط بثقل الى موضعه ، حتى ثارت اعصابه وبللـه العرق وكاد يختنق من شدة حنقه فاخذ ينادي بطرس ليستعين به .

– بطرس ! بطرس ... روزا .. اين بطرس !

ويقف لحظة ليمسح العرق المتصبب منه ويقول في نفسه : « اموت ليعيشون هم ، اقاوم الطبيعة من اجلهم ، يأكلون الخبز معجوناً بدمي ولا يشعرون بان هذا دم وليس ماء .

واسرعت روزا والدته الى المصطبة ونادته :

– بطرس ! ابوك يناديك يا بطرس .

وبطرس يحترم والده ويخافه كثيراً . فركض اذ سمع الصوت تاركاً رفاقـه غير آسف على لعبة «الكلة» وامتثل بين يدي والده وبصوت خافت استجاب نداءه :

– نعـم . .

فسكت الوالد برهة قصيرة ثم التفت الى بطرس وعيناه ثائرتان :

— انا يا بني عمري خمسون سنة . خمسون سنة طويتها في العمل وانت تراني كل يوم ، انت تعرف الساعة التي استيقظ بها لاذهب للعمل والساعــة التي اعود بها منهوكاً . واظن انني قمت بواجبي نحوكم جميعاً وتنهد ثم تابع :

— وانت عمرك الآن ثلاث عشرة سنة ولكن لو انت خلقت في ايام قبل هذه الايام لوجدت انك لست طفلاً ، بل رجلاً يحمل المعول والرفش و ...

فقاطعه بطرس مازحاً :

— انا احمل المخل اتريد ان احمله ؟ فهز الوالد رأسه وتابع :

— انا لست فيلسوفاً يا بني انما اعرف شيئاً لا ادري ما تسميه . انت تتعـلم في المدرسة وانت تفهم . ان الحياة يا بني بخيـلة جداً . « بعرق جبينك تأكل خبزك » هكذا قال الله تعالى . وانا اعرف الحياة كصاحب « الورشة » التي اعمل بهـا . لا تعطي الا بقدر ما تعطيها . وهل تظن ان صاحب الورشة يعطيني اجرة يوم واحد وانا متربع في البيت امام الموقد ؟

وجمد بطرس في الارض جموداً غريباً كأنه شخص كبير . لقد احس بكلمات والده كأنها اصوات صارخة في نفسه تدفعـه للحياة . ولم يلبث ان ارتعش واخـذ يشهق بالبكاء . لا خوفاً من قساوة والده ولا لانه لم يسمع من قبل ما سمعه الآن . بل لانه احس الحياة تدنو منه بل هو فيها تلف حبالهـا على عنقه وتكاد تخنقه . انه ضعيف طري العود كالاقحوانة تهزها نسمة . واذا به يدور بعينيه في جسمه النحيل ويتفحص يديه الرقيقتين ويتطلع الى والده يتفحصه من قدميـه لرأسه وينظر الى المخل فترتعد فرائصه . ويدور بين الحجارة والتراب وتجمد عيناه في الصخر .

— انقضى ما يزيد عن الساعة وانا اعالج هذا الصخر فلا استطيع اقتلاعه . حتى ارتخت اعصابي من التعب . لكن هل من احد يرى ليشعر ؟ هل من احد يفكر بي ؟ هل انا في الحديقة او لا ؟ هل انا بحاجة الى شيء ؟ هل انا جائع ؟ هل انا عطشان هـل انا ميت او حي ؟ الا يمكن ان يتدهور الصخر عـلي واموت ؟ الا يمكن ان تفاجئني حية وتلسعني واستنجد فلا اجد احداً ؟ امك تقول انها تهيء الطعام وانت

ماذا تفعل ؟ اليوم الاحد . اذن انت تلعب . تقضي نهاراً كاملاً في اللعب . وهذا رأي املك . امك تريدك مثل اولاد الجيران . اولاد الجيران يلعبون اليس كذلك اولاد الجيران يتلقنون العلم فارسلناك تتلقن العلم واشترينا لك الكتب والدفاتر والاقلام ودفعنا اجور المدرسة . اولاد الجيران يلبسون ثياباً جديدة فابتعنا لك ثياباً جديدة . اولاد الجيران يأكلون الفاكهة بعد كل وجبة طعام . ما رفضت لك ولامك طلبا ، واشترينا لك ساعة وحقيبة وقلم حبر . وها انت كاولاد الجيران لا بل احسن منهم . لكن يا بني هناك حد لكل امر . اسمع يا بني هذا سر بيني وبينك . انك صغير بعيني امك ولكنك رجل بعيني . فانا بعمرك كنت رجلاً بعيني والدي . امك تريد قتلي لتعيش انت . انظر الى شعري قد خطه الشيب ، الى جسمي المضعضع ، الى وجهي لم يبق فيه الا العظم والجلد ، الى يدي اللتين تحجرتا من المعول والرفش والمخل . انظر الا ترى ؟ تريد قتلي لتعيش انت . فهل ترضى ؟

وسكتا برهة قصيرة عاد بعدها الوالد الى ثورته فشد بكتف بطرس قائلاً :

– عالج معي هذا الصخر . يبقى ساعة للغياب .

وتقدم بطرس متعثراً يملكه الرعب .

– خذ حجراً كبيراً .

فتناول بطرس حجراً كبيراً وانتظر امر والده . فوضع الوالد المخل تحت الصخر ورفعه بكل قواه فنفرت عروق عنقه وانفتحت عيناه وصرخ ببطرس :

– ضع الحجر تحت المخل واعد يدك بسرعة .

ففعل لكن الصخر كان اسرع منه فسقط على يديه .

وفي اليوم التالي جاءت وفود كثيرة من اهالي الضيعة تسأل عن بطرس . وراح بطرس يستقبلهم بابتسامة عريضة كأن لم يحدث له شيء . ويسرد لكل واحد كيف سقط الصخر على يده وعصرها عصراً . وكيف انه برعاية الله نجت يده من

القطع اذ كانت الأرض طرية مبتلة بالماء ففارت يده بالتراب . ولم يلحق بهـــا الا كسراً بسيطاً ورضوض لن تطول باذنه تعالى. ويسرد ذلك بفخر . خصوصاً عندما يشاركه بعض رجال الضيعة الذين حدثت لهم حوادث عدة من هذا النوع ويسرد كل واحد حادثته ويتباهى . »

تذكر بطرس كل ذلك . وتذكر كيف اعتاد بعد تلك الحادثة ان يعمل عمل والده . واخذ يعمل في الحديقة طيلة ايام الاعياد والاحاد فينقب الارض ويسقي المزروعات ويحمل الحجارة ويبني الحيطان التي تهدمها سيول الامطار في الشتاء .

ولم يجد اي عيب بذلك بالرغم من انه كثيراً ما كان هـدف انتقادات رفاقـه من الجيران :

– فلاح يحمل المعول .

– ضيعان العلم الذي تلقنه .

– غداً سيناقش شجرة التين وشتل الملفوف ورؤوس البطاطـــا في الفلسفة والادب والحساب .

بل كان يفتخر بنفسه ابن فلاح يصبح محامياً . واي فخر لاولاد الجيران الاغنياء الذين لا هم لهم الا الدرس وشم الهواء ؟

وراح يستعرض ايام حياته يوماً يوماً . فـلم يصدق انه اصبح محاميـــاً . لقد استدان والده كثيراً ليدفع قسط المدرسة وعندما وصـــل للصف الاول احرج الدائنون والده فاضطر لترك المدرسة والذهاب الى قرية نائية من محافظة الجنوب ليعلم فيها ويساعد والده في دفع الدين الذي عليه . فكان يعلم في النهار وفي الليل يعب من العلوم من كتب تزدحم على طاولة صغيرة وعلى ضوء شمعة حزينة . وبعد خمس سنوات كان لديه بدون ان يدخـل مدرسة شهادة البكالوريا بقسميها الاول والثاني ثم شهادة المحاماة .

لا يجد الناظر اليه الا البسـاطة وما يتفرع منها . طقم افرنجي ،تراخ وقميص

مفتوح لا تعرف عنقه الربطة وحذاء اسود قلمته الايام . انما كل ذلك ضمن دائرة النظافة . وهو نادراً ما يتكلم الا رداً على سؤال . وسكوته ليس عن جهل للمواضيع التحدث . انما عن قلة الوقت عنده . فهو يفكر دائماً . عيناه ساهمتان اينما وجد ، ساهمتان في الفراغ بينه وبين الارض . تظنه ضائعاً والحقيقة انه يدور بعقله حول امور لا عد لها . والكثيرون يضحكون منه باديء الامر لكنهم لا يلبثون ان يعضوا على شفاهم اذا ما عرفوه وتحدثوا اليه .

... وتذكر اشياء كثيرة كانت بالامس مرة يحاول التخلص منها ويجدهااليوم حلوة ويفتش عنها . واذا به يركض الى الحديقة ويفتش عن والده متمنياً لو ان صخراً يسقط على يده ويعصرها ليجيء اهالي الضيعة في اليوم التالي ويسألون عنه ويسرد عليهم الحادثة ويفتخر .

كأس وسكي

عاد فريد تلك الليلة وفي صدره جرس يدق وفي دمه نشوة من الفوز ! وتمنى وهو عائد لو ان المرقص بقي مفتوحاً للصبح . اذن لبقي هو قبالتها واشبع نظره منها . واستوثق من صفو عينيها المحدقتين اليه :

– ماذا تشربين يا آنسة ؟

– وسكي . تفضل . اشرب .

انه ليحس الآن الكأس التي شرب منها تطبق على شفتيه . وتطلع من جوانبها من بقايا الاحمر ، شفتاها هي . فيلتقي فمه فمها ويذوب شوقاً .

وانه ليجد فيها غير ما سمعه من رفاقه : « انت لا تعرف بيروت ، لا تعرف المراقص ، لا تعرف الراقصات . مهنة الراقصات صيد الشباب ونهب الجيوب . » اما قدمت له كأسها ؟ اما شربت من الكأس بعد ان شرب هو ؟ ان هناك دافع دفعها لذلك . هو بدون شك غير الاصطياد وغير النهب . « كل ما يظهرن به هو مصطنع فلا تغرنك ابتسامة او غمزة او هزة خصر . » واي اصطناع في نظراتها اليه ؟ تلك النظرات الهادئات العميقات ؟.

وانسل في فراشه تتزاحم في رأسه الافكار . وقرر في نهاية نقاش بينه وبين نفسه ان يذهب مساء الغد الى المرقص ويدعو « الآنسة » الراقصة الى الجلوس معه . « اياك ان تدعو راقصة الى طاولتك فانها لا تكتفي بكأس وبكأسين بل ساعة تنفض يدك من آخر غرش في جيبك . وتجد نفسك آخر الليل انت والكأس الفارغة امامك . » وضحك فريد عندما مرت بخاطره هذه النصائح . هل هو ابله لهذه الدرجة ؟ هو يعرف ماذا يقول لها وكيف يتخلص من شبه هذه المناورات

ثم لم النقاش ؟ لم التردد ؟ لم الخوف ؟ هو على استعداد ان يصرف خمسين ، مئةليرة ويفترض انه فقدها . وهل تجلب المئة ليرة المصائب ؟ ونام فريد على قراره هـذا ملتحفاً من الاحلام الذهبية .

كان ازدحام الناس في صالة المرقص مساء اليوم الثاني شديداً نظراً لوقوع ليلة الاحد . فدخل فريد المرقص وجلس الى طاولة منزويـة . ولم يلبث ان شع بريق عينيه اذ رأى « فتاته » الراقصة تتجه نحوه . فاومأ لهـا بيده وبهمهمة بعثت فضول الحضور فاشرأبت اعناقهم . ودنت منه وسألته بلهجة ناعمة :

— وحدك ؟

فاجابها بلهفة :

— بل انت معي .

فامسكت باطراف ثوبها ورفعتـه استعداداً للجلوس فما كان من فريد الا ان انصب نظره الى ما تحت اطراف الثوب الحريري الاسود ، ويا لما رآه ... لكنها هي تجاهلت ذلك فجلست بدلال وادارت عينيها في الجمهـــور ونثرت بعضـاً من ابتساماتها فتلألأت على كل شفة وكل جفن . واحس فريد بصدره يمتـــلىء فرحاً فاخذ هو ايضاً ينثر على الجمهور من ابتساماته فخوراً بحسنائه زاهياً .

ثم التفت اليها محاولا ان يسكب في كلماته شعوره بالواجب الذي عليه :

— انا مدين لك بكأس وسكي فهل تسمحين بان افي الدين الذي علي .

فسكتت وابتسمت معلنة قبولها . فنادى فريد الكرسون :

— كرسون . وسكي حالا .

فاحضر الكرسون كأسين وسكي في الحـال . فاخذت الراقصـــة كأسهـا وارتشفته مرة واحدة وقالت لفريد وقد تغيرت ملامحها تغيراً جعلها ذات صبغـة نفسانية معذبة يأسة :

– اريد ان اشرب . اطلب كأساً ثانياً . اطلب لي قنينة اذا شئت . اريد ان اسكر .

وصمدت تنظر في فريد نظرة عميقة قوية احسها فريد محرقة فلم يستطع الصمود امامها فخفض عينيه برهة قصيرة ثم التفت جهة الكرسون :

– قنينة وسكي حالا .

ثم عاد ينظر اليها بلهفة وتفحص ويدور في وجهها وجسمها متخيلاً نفسه يلتهم صدرها النافر او يشد بخصريها الرقيقين ويضمها ويوسعها لثماً . وامتدت يده بدون وعي منه الى يدها فاخذ يمر بها على اصابعها اصبعاً تلو اصبع ، مرتعشاً من كثرة الشوق ، واذا بيدها تمتد ببطء الى فمه فتلمسه ثم تنخطف خطفاً . فانتفض قلب فريد . فاخذ الكأس يرتشف الخمر محاولا تخفيف وقع هذه الصدمة على اعصابه .

ثم نهضا وراحا يرقصان على انغام « التنغو » الناعمة التي تزيد في قلوب المتيمين رقة وشعوراً . وكان فريد طوال الرقصة صامتاً كابتاً عاطفة في دمه ثائرة ، ساهماً في النظر الى عينيها الساهمتين فيه ايضاً . وهو يحسها تنفذان الى قلبه . لكن كلمة تهزه بين اللحظة واللحظة فيحاول ان يلفظها فيتعلثم وتذوب الكلمة وتصبح ريقاً محرقاً على شفتيه . وتضج في اذنيه كلمات اصدقائه : « اياك يا بسيط القلب ان تقول لراقصة : اني احبك . فانها لن ترحمك ولن تشفق عليك »

وعاد الى الطاولة . وفكر بانه سيدفع المئة ليرة ولن يبقى في جيبه سوى ليرتين فقط اجرة التاكسي فقال في نفسه : « لا بد من انها ستقدر لي هذا حق قدره والتفت اليها وقال :

– أتعرفين انني تلميذ .

– اعرف ذلك . وان لك قلب ابيض . ولذلك تجدني اجالسك ولا اعاملك كبقية الزبائن ...

– هل من مجال للشك ...؟ اعرف الكثير عنكن انتن الراقصات .

ـ الا تثق بعزتي لك يا فريد ؟ ان الايام ستبين لك ذلك .

ـ اني اثق ولولا ذلك لما جئت الليلة . واذا عرفت اني لا املك غير المئة ليرة التي سأدفعها ثمن الوسكي ادركت مقدار ... معزتي لك .

ـ انت صرفت مئة ليرة . وهل يحسب للمئة ليرة حساباً ، كثيرون هم الذين وقعوا في حبي وصرفوا اموالا لا تعد ولكن واحداً لم يستطع ان يمتلك قلبي .

فقال فريد في خبث مؤلم :

ـ اسفي على المئة ليرة ضاعت في الهواء .

فقالت بدهشة وتأثر :

ـ انت طيب القلب ونواياك حسنة . اني اشعر معك . ولو اني عرفت انك لا تملك سوى هذه المئة ليرة لمنعتك عن صرفها .

ـ اذا كنت كما اظنك وكما يعبر صفو عينيك . فلا مجال للاسف على كل ما اضحيه في سبيك .

وانقطعا عن الحديث برهة ليست بالقصيرة . ثم نهضا وراحا يرقصان ويختلطان بين الراقصين والراقصات والامل يغمر قلب فريد .

وعندما عادا الى الطاولة افرغا كل ما تبقي من قنينة الوسكي . وفي نشوة من السكر مرت افكار في رأس فريد : « لا مجال للشك ابداً . انها لم تحب احداً قبلي . وانها رأت فيّ شيئاً لم تجـــده في غيري . والا لماذا هذا العطف عليّ ؟ أليس كان في قدرتها تركي والجلوس مع غيري بعد ان طلبت قنينة الويسكي ؟ ثم اين ما يدل على الكذب والتصنع في حركاتها ونظراتها ؟ ان نصائح اصدقائي هي نتيجة فشلهم فيمن ارادوا حبهن . ان الراقصة انسان مثل غيرهـا من بنات حواء . عندها من الصدق والرحمة والحب كما عندها من الكذب والقسوة والبغض .»

وحدق فريد في راقصتـــه ، يترنح في رأسه الف امل وامل ويشعر باقصى ما يشعره السكارى في نشوة سكرهم .

– سكرك لذيذ . انك تذوب عاطفة . قم نرقص .

ثم انحنت اليه وهمست في اذنه :

– قم ضمني اليك .

ورقصا رقصة طويلة احس فيها فريد انه يتفتت عـــلى نواحي جسمها العاري ويذوب. وقبل ان تنفلت منه عند انتهاء الرقصة اندفع اليها واختطف منها قبلة محمومة.

وعندما عادا الى الطاولة كان السكر قد افقد فريد وعيه فأخـــذ يتغلب على نفسه محاولا ان يستعيد ما افقده السكر لكنه لم يستطع فارتخى رأسه وتساقط على جانب الطاولة وغفى يشخر ...

واستفاق على نفسه في اليوم الثاني في غرفته . فالتفت حواليه فلم يجد احداً . ثم نظر الى نفسه فرأى انه نائم بثيابه الكامـلة وهي مثنية وعليها بقع من السائل الوسخ . فأخذ يفرك عينيه ويستجمع افكاره المبعثرة المختلطة بعضها ببعض . حتى اذا ما استملك نفسه نهض بتثاقل وراح يرتب هندامـه ويسوي شعره . وقبل ان يهم بالخروج الى المدرسة استوقفه شيء : القبعـة . لقد نسي قبعته عـلى الطاولة في المرقص . وانطلق راكضاً يفتش عنها . انهـا جديدة وثمينة ولا يمكنـه الاستغنا عنها والفصل فصل الامطار .

ووصل الى الرقص يلهث من التعب ولم يستطع مخاطبـة الكرسون من كثرة التعب. لكن الكرسون عرفه وعرف ما سيطلب فأومأ اليه جهة باب غرفة الراقصة، راقصته نفسها فالتفت للحال فوجد قبعته وسخة مثنية . والشريط المربوط حولهـا ممزقاً متدلٍ ، وهي معلقة بطرفها بقفل الباب .

فاقترب متعثراً وتناولها محدقاً اليها مخنوق الانفاس .

فنجان قهوة

جارتي ام ابراهيم ارملة عجوز فقيرة ، تسكن في غرفة من بيت حقير . لكن من لا يعرفها في الحي ولا يذكر اسمها بكثير من التقدير والاحترام ؟ فام ابراهيم تعرف في القهوة . فهي تبشر صبايا الحي بالعرسان الاغنياء والشباب بالصبايا الحسان والعوانس بالامل المفقود . اما انا فكنت اضحك منها واضحك من الذين يصدقونها ويعتبرون كلماتها آيات منزلات ويعيشون معها بالامل .

على أن ام ابراهيم تتقن فنها ، فن التبصير الى ابعد حد . ذلك انها اذا انبأت صبية بعدم زواجها بشاب تحبه قالت لها :

– ولكن ذلك سيكون لخيرك . وسيطلب يدك شاب آخر اغنى واجمل وستسعدين معه .

كذلك اذا انبأت احداً بوفاة شخص عزيز عليه قالت له :

– ولكن هذا الذي سيموت قد استخصه الله بسعادة في دنياه الثانية .

وكذلك تقول للشاب الذي تنبئه بصعوبة زواجه من الفتاة التي يحبها :

– في طريقك عقبات . المسألة معقدة . لكن الامل موجود . فلا تيأس . فقد تصل الى غايتك اذا انت ضحيت من وقتك وكبريائك .

واهالي الحي يجودون عليها بالمآكل والمال . فهذه صبية بشرتها بالزواج فصح ما قالت . وهذه زوجة بشرتها بصبي وذلك بوظيفة وذاك بربح دعوى . فام ابراهيم تعيش من فنجان القهوة . من فن التبصير الذي لا ينازعها اياه احد في الحي .

ذات يوم دفعني فنجان القهوة الى دعوة ام ابراهيم .

– ام ابراهيم .. ام ابراهيم .. تعالي يبدو لي ان في فنجاني هـــذه المرة من الالغاز ما يثير فضولي لمعرفته .

فجاءت ام ابراهيم وهي تقول :

– بدأت تؤمن بالفنجان وبام ابراهيم ؟ هات أشوفه لك .

فضحكت . وانحنيت جهتها ادور بعيني في جوف الفنجـــان واتفحص معها خفاياه . فادركت ام ابراهيم الخبيثة مقدار شوقي لمعرفة ما ستفسره لي من الغازه . فجمدت في الفنجان برهة طويلة ثم نظرت اليّ فلحظت ان في عيني علائم استفهام وعلى فمي سؤالات تنتظر .. فزمت بشفتيها الجعدتين واخـذت تقلب الفنجان بين اصابعها ثم قالت :

– انت شاب حائر .

وسكتت . ثم تابعت :

– الى درجة انك لا تستطيع النوم .

وعادت تقلب الفنجان محدقة الى كل بقعة من القهوة العالقة في جوفه . وتهز رأسها علامة حل لغزها . لكنها تتمهل في التفسير لي كأنها تريد اشراكي في المهمـة العسيرة التي استخفها . او كأنها تريد ان تبين لي شدة تدقيقها وحرصها على اظهار اسرار حياتي على الوجه الاكمل وتعود تقول :

– في رأسك مشاريع كثيرة . ولكن ...

وتصمت لتستدرك :

– ما تمشي في طريق حتى تراها سدت بوجهك .

فلم اتمالك ان قلت لها :

– أرأيت لماذا انا حائر ؟ انا اؤمن بفنجانك يا ام ابراهيم والله اؤمن . لكن

هل ينفعني ذلك ؟ الطرق كلها مسدودة . صدقيني يا ام ابراهيم .

لكن كل الظن ان ام ابراهيم لم تسمعني . فكأني بها في تلك اللحظة انتقلت الى ابعد من الفنجان بكثير بالرغم من انها كانت تنظر فيه :

— انك شاب . قرب . انظر الى هذه الطريق (والطريق علامة بيضاء في بقايا القهوة) اهي مفتوحة ام لا ؟ ربما تكون مشيت في طرق كثيرة . وقد تمشي في طرق كثيرة . لكن هناك طريق لم تفكر بها بعد وهي مفتوحة . هذه هي . ولا بد من ان تمر فيها يوماً . فلا تنقطع عن المشي . ستصل الى ما تريد .

وابتسمت ام ابراهيم ابتسامة لم ار مثلها قط ، شعت فيها بشائر الامـــل في وجهها الهرم اشعاعاً نفذ الى اعماق نفسي واختلجت له جوارحي .

— وقد يكون هذا اليوم قريباً .. وقريباً جداً .

واخذت افكر عندما تركتني ام ابراهيم وعادت الى غرفتها تغزل الصوف : « وقد يكون هذا اليوم قريباً ... وقريباً جـداً » ورحت اقـابل بينها وبين ما قالت لي ، بين الحيـاة التي تحياها وبين الحيـاة التي اتخيلها تتمناها . وكأني بتلك العجوز التي ترتدي الثوب الاسود وتعض لقمتها بمرارة . تلك العجوز القابعـة في زاوية غرفـة معتمة تغزل الصوف وتنتظر ولا تعرف سبب انتظارهـا . تلك التي تعيش بدون امل ومع ذلك تعيش كأني بهـا في مطلع شبابها ، او كـأن السنين الباقية من عمرها ستطلع عليها بالف مفاجأة ، فتتزوج من جديـد ، وترزق اولاداً وتسكن بيتاً كبيراً فخماً كأنها تنتظر حياة جديدة افضل .

فضحكت من نفسي بدلا من ان اضحك منها . عجوز عمرها الباقي محـــدود معروف تنتظر من الحياة ان تعطيها شيئاً ، فهي تعمل وتسعى وتكد وتشكر الله كل يوم مهما كان يومها ، على ما اعطاها نتيجة عملها وسعيها وكدها ، وانا الشاب ، امامي العمر اتبرم بالحياة وانقم لاني لم احقق بعد كل ما اصبو اليه .

ان للامل لذة . انه يبعث فيّ النشاط ويزيد في سعيي وكدي .

— وحياتك يا ام ابراهيم احب ان اشرب عندك فنجان قهوة .

لن يتزوج

صديقي يكره الزواج . ولا يعود هذا الكره الى المرأة نفسها كما يصرح لي ولكن الى الحياة الزوجية وما يجد فيها من قيود وصعاب . وكثيراً ما كان يضحك من المتزوجين قائلاً لي : مساكين هؤلاء . لقد وقعوا في الشرك ، وقضي عليهم . المتزوج عصفور في قفص والعازب عصفور في الجو ، فانظر الى الفرق ما اعظمه : واحد يتمتع بزرقة السماء وفسحة الفضاء وآخر يكاد يختنق في القفص .

وكان صديقي يقدم كل يوم الحجج والبراهين ، مبيناً لماذا يكره الزواج مؤكداً انه لن يفكر ابداً بان يصبح يوماً من الايام مع امرأة ما تحت سقف واحد . اذ انه لا يدري هل هذه المرأة التي سيرتبط مصيرها بمصيرها تضمر له الشر او الخير !

جلست واياه ذات يوم في شرفة البيت نشرب كأساً من العرق واذا به يضحك ويقهقه ويكاد يقع على ظهره . فسألته بعد ان شاركته الضحك بدافع العدوى :

– ماذا ؟ هل من جديد عندك ؟

فقال وقد تقطعت ضحكاته :

– سأخبرك وسترى ان الحياة شيء مضحك .

ثم تابع وقد استعاد حالته الطبيعية .

– نزلت اليوم الى الشارع وقد عقدت النية على ان اسأل كل من اراه في طريقي عن حاله وكيف يعيش الى ما هنالك من شؤون . وها اراني ويا للاسف اعود بهذه النتيجة التي لم اكن حقاً اتوقعها .

التقيت بادىء الامر شاباً في مطلع عمره . محمر العينين ، ذابل العنق ، اصفر الوجه فسألته :

هل انت متزوج ؟

فتنهد واجاب : كلا . ولكني افتش عن امرأة . افتش عنها ليل نهار .

– هل تحب الحياة الزوجية ؟

– كثيراً .. كثيراً ..

ثم اردف وهو يهز برأسه :

– الدنيا امرأة . وهدفي الوحيد في الحياة الوصول اليها .

وراح يسرد علي اشياء واشياء وقد شرد بصره : كيف يريد ان تكون وكيف سيحبها وكيف سيسحرها بشتى الوسائل كي تظل له وحده ، وكيف سيتمكن من منع كل الناس حتى من النظر اليها . ولكني قاطعته اذ احسست خلال حديثه انني اكاد اطير وافقد وعيي .

– وفقك الله يا اخي . ولا شك بانك ستكون اسعد الناس .

والتقيت بعد خطوات رجلاً مجعد الوجه ، عصبي المزاج نحيل الجسم :

– هل انت صاحب عائلة ؟

– كلا . ولكن قصتي قصة . .

ثم قال :

قبل ان اتزوج كنت اعتقد انني اذا تزوجت فسأصبح مسؤولا عن تأمين العيش لشخصين : لي ولامرأتي ، ولكني عندما تزوجت وجدت نفسي مسؤولا عن تأمين العيش لستة اشخاص لعمي وامرأة عمي ولولديها الصغيرين ولي ولامرأتي .

وسألت عازباً بلغ الخمسين من عمره :

– هل انت سعيد في حياتك ؟

– لقد قضيت اياماً مملوءة بالسعادة ولكني اليوم اراني افتش عنها .

ثم قال : ليتني تزوجت .

وسألت رجلا علائم السعادة في عينيه :

– كيف استطعت الوصول الى هذه الحالة التي انت فيها ؟

فضحك وقـال : المسألة يا اخي مسألة موت او حياة . فاما ان احيا واما ان اموت . وطالما انا احب الحياة ، فلتفعل زوجتي ما تشاء فلتكسر الاواني ولتذهب الى الملاهي ، ولتشتمني ولتقل عني ما ارادت فلن اقول لها شيئاً . وستري نفسها يوماً انها وحدها في « الميدان » فتسكت وتعود الى الهدوء .

وسألت شيخاً في التسعين من عمره :

– هل تزوجت في حياتك ؟

– تزوجت ثلاث مرات وكنت اقول كل مرة . هذه « احسن من سابقتها » ولكن النتيجة كانت ان الامرأة امرأة .

وسألت رجلاً في العقد الثالث من عمره ، جالساً تحت شجرة قرب غدير مياه ، عاقداً حاجبيه يفكر :

– هل انت تنتظر احداً ؟

فكشر عن «انيابه» ونهرني قائلاً :

انتظر الموت لا ليقتلني بل ليقتل هذا الحب الذي لا اجد منه مفراً .

ثم هدأ من روعه وقال وقد جذبني بيدي لاجلس قربه :

– هل تعرف زوجتي ؟ لقد تركتها مكرهاً ، هي تحب غيري . ولكني احبها، احبها كثيراً . وحياتك هل لك ان تدلني عليها ؟ .

فاعتذرت وتأسفت وتركته في تفكيره وانصرفت عائداً من حيث اتيت .

ثم بادرني صديقي قائلاً وقد عاد الى ضحكه .

– فما رأيك ؟ .

اما انا فاعتصمت بالسكوت . وقد ايقنت ان صديقي لن يحيد عن رأيه بعدم الزواج والبقاء في عزلته .

وانطوى اسبوع لم ار لصديقي فيه وجهاً . ودهشت عندما رحت اسأل عنه وقيل لي انه تزوج وذهب مع عروسته لقضاء شهر العسل .

الشارع المظلم

لقد أعتاد رئيف قبل ان يلبي رغبات نفسه عندما تثور ان يشرب كأساً من العرق . لا للسكر وهو يكره اكثر ما يكره ان يسكر ويخرج من بيته يشتم اعراض الناس ، او يتمشى مغنياً او ينبطح على حافة الطريق .. بل هو يشرب العرق لان من طبعه التمتع بالاشياء التي يعشقها تخيلاً . فهو اذا شرب العرق انقلبت الكأس البيضاء امامه الى بركة ماء زرقاء وسرب من بنات حواء عاريات يغتسل بعضهن والبعض الآخر يتجفف على جوانب البركة . ويرمقنه بنظراتهن الساحرات ويتدللن كالاطفال . لكنه كان غالباً ما يحس باوجاع في رأسه نتيجة عراك بينه وبينهن اذ تكون ايديهن تملكت بشعره .. ويجد نفسه بعد ساعة او ساعتين ، وقت تدفعه اعصابه الى « الواقع » الى لمس تلك الاشياء التي تخيلها دون ان يطفىء بمائها نار ثورته ، في متجر النساء الرخيص .

لكنه الليلة لن يشرب العرق ولن يتذوق لذة الخيال . ليس في جيبه من المال سوى ثمن امرأة لربع ساعة فقط .

ومشى في طريقه الى متجر النساء . وما كاد يصل الى سلم اول بيت حتى وقف يستمع لدقات قلبه فكأنه ذاهب ليقترف جرماً او كأنه اقترف جرماً وهو يهرب من وجه الناس . هو لم يفعل شيئاً من ذلك ، فما سبب ارتباكه ؟ وصعد السلم بخطى بطيئة ذليلة ، ما ابعد الشبه بينها وبين خطاه وهو شارب العرق ... علي ان اجيء بعد منتصف الليل . في ذلك الوقت يكون المتجر اخف ازدحاماً . وربما رآني معارفي . قليلون هم الذين يعرفون انني اجيء للمتجر .

فرجع وهو يقفز السلم درجتين درجتين . وتوارى في شارع مظلم فصفرت له واحدة ونادته اخرى بكلمات رنت في اذنيه رنيناً مزعجاً .

وعادالى المتجر حوالي منتصف الليل وراح يدخل كل باب يطلع في وجهه ، فيدور بناظريه في بضاعته ولا يلبث ان يخرج متوجهاً لغيره ، بضاعـــة وسخة ، وروائحه كريهة . وظل في دورانه اكثر من ساعة . حقاً اني مزعج . الا يعجبني شيء ؟ وهل جئت لاختار عروساً ؟ وهل علـيّ ان افرق بين امرأة وامرأة لربع ساعة فقط ؟ ولكني لا استطيع لا . . لا . . آه لو شربت كأساً من العرق . »

قد تمثلت له الحقيقة العارية . ان ذلك الوشاح الجميل الجذاب الذي كان الخيال نسجه حول بضاعة هذا المتجر مزقه الواقع .

ولعن وثيف العرق الف لعنة لقد كان يخدعه ويذر في عينيه الرماد . واحس بثقل في جسده ، وبتعب في اعصابه فارتمى على اول كرسي في اول مرسح قريب من المتجر ومد يده ومسح جبينه . ثم غفا من كثرة العياء والسهر والفكر .

وفي الصباح الباكر استيقظ على صوت وعلى يد ناعمة توقظه :

– قم واشرب قهوتك .

فاخذ فنجان القهوة من يدها بدون وعي وشد بعينيه : « لا يمكن ان اكون طويت ليلتي هنا . وعلى هذا الكرسي وفي هذا المكان الوسخ » .

– شكراً . القهوة تضرني . ولقد تأخرت عن عملي .

– ولكن هل تعرف باية حال انت ؟

– لا انا لم اشرب عرقاً .

– تعال الى المرآة .

ووقف امام المرآة ينظر الى نفسه : شعره مبعثر وثيابه مثنية كأنهـــا كانت فريسة الكلاب وورم في عينيه : « هل شربت عرقاً » ؟

فغسل وجهه وصفف شعره ورتب هندامه ثم استجمع افكاره والتفت الى المرأة :

– اشكرك . لكن اليس من الواجب ان ادفع لك شيئاً ؟

وماذا عملت لك لتدفع لي ؟ كل ما في الامر انك نمت بضع ساعات على الكرسي.

ثم قالت :

ــ انت غريب . لست بيروتياً لاحظت ذلك .

بعد مضي اسبوع ابتاع رئيف دزينـــة من الكاتو وحملها وذهب الى المتجر يقدمها للمرأة عرفاناً للجميل :

ــ فكرت بك اليوم وانا آكل الحلوى .

فادارت ظهرها ولفظت بضع كلمات ثم التفتت اليه غاضبة وهي تقول :

ــ انتم الرجال تأتون لهنا لغاية « معلومة » . تقضون حاجتكم وتبصقون .

فارتبك رئيف :

ــ هل اهنتك يا سيدة ؟

فضحكت واخذت من يده الكاتو . وبعد ان سكتت برهة قصيرة شعت فجأة على وجهها ابتسامة :

ــ انه يحب الكاتو .

فلم يدرك رئيف ما تعنيه : « انه يحب الكاتو »

ــ من هو ؟ من هو الذي يحب الكاتو ؟

ــ اوه . الا تعرف ان لي ولداً ؟ جورج .. جورج .. عمره عشر سنوات . ذكي اكثر من والده . لو عاش والده اليوم . آه .

فلم يتمالك رئيف ان قال لها :

ــ ولماذا انت هنا ؟

ــ انا يونانية . زوجي مات مع الذين ماتوا في ساحة الحرب . انا وحيدة وفقيرة وليس لي غير هذا الطفل .

ــ اما كان باستطاعتك ايجاد عمل شريف غير هذا العمل الوسخ ؟

– ماذا تريد ان اعمل ؟ انا لست متعلمة . ولست اية من ايات الجمال . أأعمل كخادمة ؟ وجورج ولدي ؟

– اين هو جورج ؟

– في المدرسة . في افضل مدرسة في بيروت وان كان لي من شيء افخر به هو انه ولدي يعيش ويتعلم ويلبس كاغنى الاولاد . اني لا ارد له طلباً يمكنني تحقيقه . لقد ضحيت بنفسي لاجل ولدي ورفاهيته وكفاني هذا الفخر .

وسكتنا دقيقة طويلة . ثم قال رئيف :

– اذا كنت تريدين . فانا مستعد لحمل هذه الكانو الى جورج .

– لن يأخذها منك .

– لكني لن اراه . اقول لمدير المدرسة او لاي واحد هناك . ان هذه الكانو لجورج من امه ؟

– اخاف ان تستدعيه لمخاطبته . انه لا يعرف عني شيئاً . هو يعرف انني اشتغل في مستشفى .

– الا يسألك عن ابيه ؟

– ابداً .

وقبل ان يقف رئيف ليذهب مودعاً اخذته بيده الى خلف ستار في غرفتها .

– أرأيت كل هذه ؟ كلها لجورج .

وكان على طاولة صغيرة خلف الستار بذلات جديدة وقبعات وكلسات واحذية وعدد من اللعب الجميلة .

فابتسم رئيف وقد وثق من كلامها :

– عذراً . ظننت ...

– قلت لك انتم الرجال تأتون لهنا لغاية معلومة . تقضون حاجتكم وتبصقون ! واذا شئت فاقضي حاجتك وابصق عليّ .

الروشة

من منا لا يعرف « الروشة » او لم يسمع بهـا ! تلك الصخرة الكبيرة العاليـة القائمة على شاطيء رأس بيروت، محجة العاشقين البائسين والمتبرمين بالدنيا البائسين كلنا نعرفها او سمعنا بها . لكن ليس من احد منا يدرك السبب او السر الذي من اجله يقصدها طالب الانتحار ، فابن الجنوب وابن البقاع وابن الشمال وابن الجبل مثله مثل ابن بيروت عندما يفكر بالانتحار . تتردد على شفتيه كلمـة « الروشة » فاذا كان لا يعرف مكانها فتراه يسأل عنها ويقصدهـــا ولو مشياً مستمهلاً الموت بصبر عجيب !

وهكذا فؤاد عندما عنت له فكرة الانتحار تخيل الروشة وتخيل نفسه بـــين مئات الارواح الهائمـة ما بين الرمال والبحر . واحب لغاية في نفسه ان يقصدهـا اولا برفقة « حبيبته » وهما هما يمشيان ويتحدثان :

– انتظريني شهراً واحداً .

– قلت لك الف مرة انت صديقي يا فؤاد ولست بالذي سيشاركني الحيـاة .

– وما يمنع ان تكون صداقتنا اساساً للزواج ؟

– هذا الموضوع . اتفقنا البارحـة ان لا نبحث فيه .

– هذا الموضوع هو كل الصداقة التي تربطنا .

دع الكلام لعقلك واترك قلبك الضعيف جانباً .

– قلبي الضعيف ! اشكرك . تضحكين مـني لاني ادعوك للزواج . تضحكين مني لاني احبك . ولاني اضحي بكبريائي واظهر لك ضعفي .

– اني آسفة لعدم فهمك مقصدي .

– مقصدك ! وما هو مقصدك ؟

– اريد ان اقول انك رقيق الشعور مرهف الاحساس . واني اقدر لك هذه الصفات الطيبة . لكني لست انا المذنبة بحقك اذا كانت عاطفة الصداقة دفعت بك الى الحب . الى حبي .

– الا تعرفين ذلك قبل اليوم ؟

– كنت صغيرة لا افهم الحب . ولم يحدث بيننا ما يدعو للتفكير بهذا الامر .

– اذا كانت احاديثي اليك لم تتعد سرد القصص المضحكة والاخبار الطريفة واذا كانت نزهاتنا لم تتعد شم الهواء والتمتع بجمال الطبيعة ، فيعني ذلك انه ليس بيننا شيء ؟

– ولماذا كتمت حبك طيلة تلك المدة ؟ ألم يكن لك الجرأة على البوح بذلك؟

– كنت اكتفي بالتلميح ، ولكن اليس بيننا من الذكريات ما هو اقوى من كلمة : اني احبك ؟

– هي ذكريات بفضل جمالها وعذوبتها ستظل انت صديقي للابد .

– لماذا تتجاهلين ؟ انت غيرت رأيك فيّ . اليس كذلك ؟

– انت صديقي .

– اتعتقدين ان تلك المدة الطويلة التي تركت فيها رفاقي وكنت لا افكر الا بك هي لمجرد الصداقة فقط ؟

– الا تعلم ان هناك صداقات اقوى من الحب . قد يمكن ان لا احب زوجي اكثر من سنة او سنتين . من يدري . وتبقى انت صديقي طول العمر .

– لن ادعك تتزوجين من غيري .

– اذن انت لا تريد لي السعادة الزوجية .

– سعادتك بين يدي ، وسعادتي بين يديك .

– حاول ان تنساني يا فؤاد .

– كيف أنساك وانت جزء من وجودي وشعوري ؟

– ارجو ان تنسى . ارجو ان تفهمني . افتراقنا ضروري لي ولك . لا تقف حجر عثرة في طريقي . دعني ، دعني وشأني . اني لا احبك زوجاً لي لا احبك .

– كذابة . كذابة ، لكنك اخترت المال بدل الحب . فلتسعدك السيارة الفخمة التي ستركبينها . فليبعث في نفسك الطمأنينة القصر الضخم الذي ستسكنينه . فلتبهر عينيك الجوهرات المشعشعة . اشربي ماء الحياة من الشمبانيا والوسكي . اذهبي وابني صرح سعادتك الزوجية على هذه المغريات . يا لك من فتاة فارغة . ان حباً لا يقوم على جوارح الصدر ولا ينبض فيه نبض القلب ولا يجري فيه الدم لهو حب ميت . اني اكرهك كرهاً لا مثيل له .

واحست وداد بدوار في رأسها ، وبنار في عينيها ، فارتمت على فؤاد تسترحمه وهي تشهق بالبكاء :

– كفى اهانتي . ارجو ان تكف :

ثم التفتت الى البحر :

– انظر الى الطبيعة ما اجملها . الى هذه الالوان التي تخطها الشمس على البحر يا له من مركز رائع . لن نحاول الانتحار كما فعل غيرنا وخسر التمتع بهذه المناظر الخلابة . اسمع حس خفقان الامواج ووشوشة الهواء .

– هذا ما كنت ابغيه يا وداد من نزهتي . وليس العتاب والخلاف . انك عميقة الشعور .

– بل قل هذه هي حياتنا . حياتنا المشتركة في النزهات التي لا يشعر بها احد مثل ما نشعر بها معاً .

– لقد ضاع عقلي عندما علمت بان شاباً طلب يدك .

– من اليوم لاسبوع مجال واسع فقد أغير رأيي .

– وداد ؟

– ماذا ؟

– اني تعب .

– ولقد دنت الشمس من المغيب . ولم يبق في البحر سوى مركب صغير يتهادى . هو عائد الى الشاطىء . اتذكر يوم كنا في المركب وداهمنا الظلام ونحن في عرض البحر ؟ لقد تملكنا الخوف ذلك المساء . ولقد كنت لطيفاً معي ، اعطيتني الجاكيت . خلعتها عنك لترد عني بها اذى البرد .

– ان ذكر ذلك يؤلمني الان ، فلنعد الى البيت . انتِ مخطوبة . كان علينا ان لا نأتي معاً ونتأخر لبعد غياب الشمس .

وعادا وراحت وداد تغني ، وانطلق صوتها بعيداً قوياً كأنه يتحدى ارواح المنتحرين . كانت تغني بصدر كبير ونفس يتدفق كالموج آملة ان تبعث اللامبالاة في نفس فؤاد ووضع ستار من العبث واللهو بينها وبينه . لكن الصوت كان في اذني فؤاد كدق الجرس في يوم حزن .

– وداد ، ان صوتك يؤلمني . احسه نزاع روحي وهي تنفصل عن روحك .

– انك طفل . طفل يبكي ، اية لعبة رأيتها ولم تنلها ؟

– أنت ؟

– ولكنك انت رجل .

– لا انا طفل ، واود لو انني اظل طفلاً طول حياتي .

– لقد وصلنا ، اتسمح لي بان ادخل الى البيت ؟

– . . .

– اجبني ما بك ساكت ؟ لا . . لا . . انت شاب هادىء مفكر ، واني متأكدة

بانك ستذهب الى الفراش الليلة وتصدر حكمك عليّ بعد التفكير والتعقل . أليس كذلك ؟ ثم تنام ملء عينيك وتحلم بفتاة جميلة ذكية ترضي طموحك . اتعدني بذلك؟ واذكرك بان لا تنسى ان تحضر يوم الزفاف. سأرسل لك دعوة رسمية ، الى اللقاء .

واكتفى فؤاد بان هز رأسه ومشى . مشى وهـو يحس بان الدرب الى البيت طويلة لا نهاية لها ، وانها ضيقة تكاد لا تتسع له ، وان الهواء لم يعد يكفي صـدره الخافق . وان دمه يغلي غلياناً . ان هذه الضربات التي يحسها تنهال من وداد عليه لهي فوق الاحتمال. لم يفكر قط بان وداد . وداد التي رافقها طيلة سنوات ستتركه وحيداً يوماً ما . كان يأمل ان تكون شريكة احلامـه وآماله ، شريكة مسراته واحزانه . كان يفهمها وتفهمه . فقـــد عركتها الايام فتآلفت اذواقهما واتفقت اهدافهما . كان لا يبوح بسر الا لها وكانت تلجأ هي اليه في كل ما كان يعترضها من صعاب . وفكر قليلاً ، الى من يذهب ويعرض امره . لن يشعر احد بألمـه . لن يفهمه احد . لن يصدقه احد . ان الجرح في قلبه . ولقد تحدث الى والدتها البارحة :

– تعرفين اني رفيق وداد منذ الصغر وتعرفين الصداقـة التي هي بيني وبينها . بل الحب البريء الطاهر . انت تثقين بي . ولولا ذلك لمـــا كنت تسمحين لوداد بمرافقتي اينما ذهبت. انا اعترف ان الشاب الذي طلب يدها هو من عائـلة كريمة . وانه ذو مركز لا بأس به ، وبامكانه ان يكفل لهـا اسباب العيش . ولكن شيئاً ينقصه . وهو كل شيء . انه يجهل وداد ووداد تجهله . انه لن يجدها سعيدة بقربه . فسعادتها بين يدي لان السنين العديدة التي قضتها بجانبي تؤلف جزءاً من حياتها ، ولا يمكنها مها حاولت نسيان هذا الجزء الذي لن يموت ، سيبقى متمثـــلاً في فكرها وامام عينيها طول عمرها . وسيأتي يوم تندم على ما اقدمت عليه هوساً وغروراً . وسيجد هو بالتالي ان العاطفة التي نشأت بينه وبين وداد في يوم واحد لم تدم طويلاً وسيندم هو ايضاً .

وكان جواب الوالدة :

– انت كاولادي يا فؤاد وانا اثق باخلاصك ومحبتك لنا واعرف اخلاقك الطيبة

ولكن ليس بامكاني ان اعمل من اجلك شيئاً . وداد تصرح بانك صديقها ولا يمكنها ان تأخذك زوجاً لها · والامر يعنيها ولا يعنيني . هي التي ستتزوج .

انه لا يجد منفذاً للامل . ان اليأس يغمره ، واعضاؤه تكاد تنفجر من فوران دمه . واختلطت الاسئلة والاجوبة في رأسه : غداً ستتزوج ، سأذهب كالابله الى حفلة الزفاف ؟ واضحك واغني واشرب وارقص ؟ ام ابقى في زاوية تعساً اراقب سأبكي ؟ سأفضح امري واظهر ضعفي . او اتجرد من عاطفتي وشعوري واذهب كتمثال ؟ .اذا ؟ هل بامكاني ان ارى وداد تتأبط ذراع غيري وقلبها يخفق لقلب غير قلبي . هل بامكاني ان اراها تنظر الى شخص آخر بينما انا اكون أحدق اليها واود لو ان باستطاعتي حصرها في عيني ؟ او مزجها بدمي وروحي ؟

واذا بقوة هائلة تدفعه للوراء ، فتراجع وادار ظهره وامرع جهة الروشة وكانت قدماه ثقيلتين كانه في طريق مفروش بالرمل أو الثلج. وكان العرق يتصبب منه ميازيب على وجهه وعنقه وتحت ثيابه . وكان في صدره عاصفة ألم مرير. ونبضه كضرب الحجارة . ولم يكد يصل حتى كان العياء قد انهكه ، فانفتح شدقاه وراح يلهث وقد احس بفمه ييبس واذا به يقع قرب الشاطىء مغمى عليه .

واستفاق عند طلوع الصبح فوجد نفسه في مركب صغير بين جماعة من صيادي السمك يغنون له اغاني البحر الجميلة ، بينما كانت اشعة الشمس ترقص فوق الامواج رقصة الفرح بالوجود والامل والحياة السخية .

ليلة الميلاد

كيف لي ان اذكر الميلاد ولا اذكر جدتي ؟ معاذ الله ان انساك يا جـدتي . فكأني بك هذه الليلة السعيدة تتربعين معنا ، حول موقد النار ، وذراعاك تحيطان بي.

اجل كأني هذه الليلة في القرية ، في بيتنا الجبلي الوديع ، ارى الثلوج من شق الباب تتساقط بتؤدة فتصبغ ثوب الليل الاسود بياضاً . وانتقل من هـذا الضجيج الذي لا يعرف الصمت الى هدوء القرية العميق ، واذا بي طفل بين اخواني واخواتي في ليلة من احدى ليالي الميلاد نفرك اكفنا فوق النار ونتناقش .

وجدتي تراقبنا بعينيها المطبقتين نصف اطباقة ولا تتمالك في بعض الاحيان ان تزم بشفتيها وباجفانها وتضحك .

هي تفهم ما يدور في خلدنا ، ومقدار الشوق الذي نحن فيه لتلك اللحظـة التي سترفع بها يدها الى صدرها مشيرة لنا برأسها ان نتبعها . فنتماسك ونتقاتل فرحاً ثم نتسابق الى خزانتها خافقي القلوب صامتين . وهل يجرؤ احد منا ان يرفع صوته ، او ان يتبرم ؟ اذ ان جدتي في الحال تنزل يدها من صدرها وتعقد حاجبيها صائحة بنا:
– لقد غضب الطفل يسوع عليكم ولن يفتح لكم الخزانة .

والخزانة خزانة جدتي . خزانة قديمة ابتاعتها يوم زواجها ، وهي حريصة عليها اكثر من حرصها على نفسها تفتحها سراً وتغلقها سراً . وتخبيء مفتاحها في صـدرها ليل نهار . وكم كنا نحاول ان نفاجئها حين تفتحها لتضع شيئاً او تأخذ منها حاجة فنفشل اي فشل بعد ان توبخنا وتملأ اذاننا من صياحها المضطرب المخيف .

لكن جدتي تحب كل سنة في ليلة عيد الميلاد ان تفاجئنا بشيء نسر له ونطير به فرحاً وهي لا تظهر لنا باي مظهر يوحي الينا بان ننتظر تلك المفاجـــأة . فهي تزم

بشفتيها وتعقد اجفانها وتفرك يديها فوق النار . حتى اذا ما سمعت اجراس الكنائس تدق ، ابتسمت ونهضت من مكانها واضعة يدها في صدرها . فنصرخ كلنا دفعة واحدة :

– لقد جاء يسوع ! سيفتح لنا الخزانة !

ويا لصرير المفتاح حين كانت جدتي تشد به لفتح الخزانة ، كم كان يثير في انفسنا من اللهفة ! ويا للرائحة الذكية الشهية حين تشق جدتي الباب تفوح وتملؤ انوفنا . ونحن وقد احطنا بها نكاد نمزق ثيابها . وكلنا عيون الى داخل الخزانة نتفحص كل ما فيها مدهشين لاهفين . ولا نرضى بالنظر فنحاول ان نمد يداً فنلمس كل علبة ونبسط كل قطعة قماش او ورقة او نزيح القناني والفخار المتكئة بعضها على بعض ونكشف عما ورائها . لكن اليد التي كنا نحاول مدها لا تلبث ان تعود خائفة مرتعشة .

بينما تكون جدتي اثناء ذلك تمد يداً لى هذه الزاوية فتملؤها ثم تفرغها في حضنها وتظل من زاوية الى زاوية الى ان تجد ان حضنها قد ثقل ، فتكتفي وتتراجع وتقفل باب الخزانة وتدس المفتاح في صدرها .

فتتجه فجأة انظارنا من الخزانة الى حضن جدتي ونهرع خلفها الى جانب الموقد .

وكيف لي ان لا اذكرك يا جدتي وكنت من احسن الجدات توزعين علينا حضناً من احضانك الكبيرة ، من الجوز واللوز والزبيب والتين المطبع ، تخزنينها اياماً وشهوراً ، حتى اذا ما جاءت ليلة الميلاد ودقت اجراس الكنائس بشراً فرقتها علينا .

اطيب ما اكلت في حياتي !

لكن انا خجل من يسوع ولا ادري كيف ساتقدم من مغارته . فمذ هبط الليل على المدينة وانا افتش في الشوارع ، في واجهات الدكاكين ، عن هدية اهديها اليه ، فلم اوفق . لقد وجدت اشياء كثيرة ، لكنها كلها ، بالرغم من جمال بعضها

وندرة البعض الآخر ، لم ترضني .

انا اذكر عنقود العنب الذي اهديته اليه وكنت في القرية لا ازال طفلاً . وفي كل سنة ، في عيد ميلاده ، تعود بي الذكرى الى ذلك العهد ، فاتمنى لو اعود صغيراً واعود الى قريتي . لاحمل اليه عنقوداً كذلك العنقود الذي حافظت عليه في عريشة البيت طوال ثلاثة اشهر . كنت خلالها انهض عند الفجر اتفقده ، فاسوي الكيس الذي غلفته به ، واصفف الورق اليابس هنا وهنا ليرد عنه الرياح . وكثيراً مـــا كنت اقف تحته ممسكاً بيدي قصبة طويلة اطرد بهـا الطيور والهررة والحشرات وابعد اذاهـــا عنه .

وما كان اعظم فرحي في تلك الليـلة حين حملته بين يدي واسندته الى صدري وسرت وراء والدي في الطريق المفروش بالثلج الى الكنيسة .

ساذكر خزانة جدتي وعنقود العنب في كل سنة ، في عيد الميلاد المجيد ، واتمنى لو انني طفل ، في القرية .



موت قلم

البارحة زفر قلمي آخر زفرة ومات . مات وهو في عمر الزهـور . ولم يتصل نبأ موته باحد سواي . بالرغم من ان حياته – على قصرها – كانت عـلى ما إعتقد موضوع اهتمام الكثيرين من الذين عرفوه وعرفوني . ولم يفاجئني موته . لانني يوم وجدته لاول مرة بين انامليي ادركت ان عمـره لن يطول . فقد وجدتـــه طري المعدن ، مرهف الاحساس ، رقيق الشعور ، انساني لاقصى درجات الانسانيـة . فشملته بعطفي وحبي واعطيته مركزاً جانب قلبي .

ليس هو من الاقلام المذهبة الغالية النادرة . بل هو قلم عادي تملك مثله عامة الشعب . لكنه كان عندي اثمن ما املك . لم انزعه من جانب قلبي مرة واحـدة ، من يوم جئت به ليوم البارحة . وكنت لا اظهره امام الناس الا عنـد الضرورة وبكثير من الحرص والاهتمام وعندما يطلبه احـد مني اجيب بالرفض متذرعـــاً بالف سبب !

يوم جئت به الى البيت وجلست الى مكتبي اعالج به قصـة لاحقتني اشخاصها طيلة شهرين دون ان اتمكن من التعرض لها وجدت فيه الصبر العجيب . فيدنو من اشخاص قصتي ويسأل عن طلباتهم . ثم يتفحصهم وبعـد ان يتثبت من اقوالهـــم يشدني الى اللحاق بهم حيث يعملون وينامون ، يتعرف اليهم في عملهم وفي معيشتهم ثم يعود بي الى مكتبي ، بعد تلك الجولة ، يصور ما شاهدناه واحسسناه معاً .

ما رحمني ولا رحم نفسه من يوم جئت به ليوم موته . يسهر الليالي من غياب الشمس لطلوع الشمس دون ان يترك لي مجالا لابل حلقي بنقطة ماء او اسد جوعي بقطعة خبز . يقعدني على كرسي ساعات وانا محني الظهر فوق طاولة ، تجمعت فوقها الاوراق وازدحمت عليها الكتب وبينما ازيد النار التي تلتهب في اعصـابي من نار

السجاير التي كنت اشعلها الواحدة تلو الواحدة ، وكل ظني انني اطفىء النار بالنار .

كنت احس الحبر الذي كان ينضح منه كأنـــه الدم يسيل لشفاء امراض اشخاص قصصي او لانتعاش ذبول اعترامهم . وما طلب يوماً اجرة عن عمله . فرائده السعي لاسترداد حق مغتصب ، والعمل على تعزية الفقير ، وتشجيع الفلاح ، وبث الايمان في قلوب الضعفاء ونشر راية المحبة بين الناس .

يوم انكسرت ريشته بعد ان براها الجهد المتواصل لم تطاوعني يدي على ابدالها فربطتها بخيط وتابعت الكتابة ، فزادت رقـة واحساساً . واصبح قلمي كالجندي الذي يجرح في المعركة ويظل يناضل كأنـــه لم يحدث له شيء . وبحماس اقـوى وايمان بالفوز ارسخ .

لكن عمره قد انتهى . فما اطل يوم امس حتي وجدته ميتـــاً . فوضعته على مكتبي ورحت استعرض حياته . ثم غلفته بالورق وصعدت به الى قريتي في الجبل .

وفي الكرم خاصتنا ، وفي صخرة منبسطة حفرت بيدي حفرة صغيرة ودفنت قلمي فيها بعد ان كفنته بالتراب ولقد رثيته بما يلي :

يا رفيقي الحبيب !

لقد مت قبـلي . فوجدت من يعتني بك وبقـبرك . ووجدت من يرثيـــك ويبكيك . فويلي يوم اموت انا ولا اجد من يعتني بي وبقبري . وليس من احد يرثيني ويبكيني . كنت اود ان استبقيك معي . لكنك عجلت وافترقت عني . ومـا عرفت انك صرت مني الجزء المتمم لوجودي بـين البشر . انت مطمئن الى انني ساختار غداً غيرك من الاقلام . ترى هل يطمئن قلبي الى سواك ويثق عقـلي بغيرك ؟ ترى ما الذي سيحمله لي الخلف ؟ هل يثابر معي على الجهاد والاناة والصبر هل يقضي معي الاوقات الطوال في التفكير والكتابة ؟ هل بامكانـه تلقي العنت والارهـاق بسخرية والمضي في تحقيق اماني في عناد المستميت ؟ هل يعمل للخـير والحق والمحبـة دون اي مقابل غـير الشعور بالسعادة في رؤية البشر بسلام ؟ هل

يبقى حراً طليقاً لا يتقيد برأي يفرض عليه فرضاً ولا يعتنق مبدأ يفرض عليه مقابل مال او نفوذ ؟ هل يؤمن بوطني لبنان ؟ هـل يريد له الاستقلال الدائم عن الشرق الغرب ؟ هل يصور الحقيقة فيما سيخطه ؟ هل يؤمن بان الكتابـة وادب القصة بصورة خاصة هي ليست لقتل الوقت فقط بل هي وسيلة نبيلة لعرض مشاكل الناس ومحاولة شريفة لحل هذه المشاكل ؟

هل يكون مثلك يا رفيقي الراحل الحبيب ؟

اريده مثلك وان يعيش معي وفي قلبه المحبة وفي عقـله التفكير وفي كتاباته الحكمة والحق .

لقد مت قبلي يا رفيقي الحبيب فوجدت من يعتني بك وبقبرك . ووجدت من يرثيك ويبكيك . فويلي يوم اموت انا ولا اجد من يعتني بي وبقبري .

فارقد هنا في جوف هذه الصخرة التي احببتها واحببت فيها الهدوء والسكينة . لم يعد في قدرتك العمل . اني اطلب لك الراحـة فاطلب انت لي القـوة لاواصل جهادي . لقد اكتفيت انت بما صنعت لي وللناس او بالاحرى لقد جعلت انت من نفسك الشمعة التي تحترق لتعطي النور للذين هم في الظلمة . فاحترقت وفنيت .

فاذكرني كلما مرت نسمة من النسمات العليلات وكلمـا قطر الندى عليك قطرة من قطراته العذاب وكلما زقزق العصفور .

سوف تلقاني يوماً الى جانبك فـما انت الا جزء من حياتي انتزعـه القدر مني عنوة . والاجزاء الباقية ، ستلتحق بك آجلاً ام عاجلاً .

فالى اللقاء يا رفيقي الراحل الحبيب .

بهذه الكلمات رثيت قلمي وانا واقف امام قبره الوضيع وعدت في طريقي الى بيروت وانا احس الفراغ في كل مكان . وكان قلبي كأن فيه الموت .

وساعة ولجت باب البيت استوقفني صوت :

- الم تنس شيئاً ؟

فاخذتني الدهشة . ورحت ادور بنظري . ولما لم اجد احـــداً . هممت بان ادخل مكذباً اذني . لكن يداً خفية شدت بكتفي واوقفتني ثم عـــاد الصوت بجس خافت :

— قل لي . الم تنس شيئاً ؟

فاحسست بالعرق يتصبب مني وقلت مرتعشاً :

— ولكن من انت ؟ واين انت ؟

وما انتهيت من سؤالي حتى رأيت شيئاً رمادياً كالغبار يدور عـــلى نفسه ثم يتكون رويداً رويداً ويجمد في الفضاء امامي قلماً .

فصحت :

— هذا انت ؟

ومددت يدي محاولا ان التقطه وقد شعرت بالفرح يرفعني عن الارض ..لكن القلم تراجع وهو يكرر سؤاله بصوت خافت :

— الم تنس شيئاً ؟

فتسمرت في مكاني . وعندئذ اختفى القلم وبقي صوت يقول لي :

— ارجو ان تزورني ولا تنس ان تهدي الي ضمة زهور .



عفاريت الليل

كان عليه ان يمشي مسافة طويلة ليصل الى بيته ، وكيف له ذلك والامطار في الخارج طوفان . انتظر نحواً من ساعة . ثم اضطر ان يمشي والعتمة تتغلغل في كل مكان . مشى ملتفاً بعباءة قديمة مهلهلة . وندم في الطريق على الساعة التي ضيعها في الانتظار . ثم اخذ يركض ليعوض عما فاته من الوقت . وكان كلما لمع البرق او ارعدت السماء ناجى ربه :

– ساعدني يا رب لاصل الى بيتي .

واصطكت ركبتاه فسقط في حفرة . فلملم نفسه ونهض كأنه لم يسقط . لكنه احس بألم في احدى رجليه بعد دقائق وجيزة . وراح يعرج . ثم غمرته موجة من الفرح اذ رأى على مقربة منه ضوءاً شحيحاً ينبعث من كوة بيت حقير . فاندفع اليه واخذ يقرع الباب . الى ان فتح له فانسل داخلا كأنه البيت بيته . وانتحى زاوية دون ان يرفع يده بتحية او ببنت شفة . واكتفى بفرك يديـــه ، وبازالة الماء عن ثيابه .

كان في البيت عانسان : زمرد وزينـــة . لم يبق من شبابها الا بعض اسنان نافرة تودع الدنيا بالف شتيمة ولعنة .

وبعد ان استراح قليلًا رفع بصره واداره في البيت متفحصاً . ثم جمد في احدى العانسين كأنه يريد ان يتفوه بكلمة ، فما كان من العانس الا ان اشارت له ان يجلس . فشكرها وسأل :

– في بيت من انا ؟

فاجابت وهي تنظر الى رفيقتها بحنق :

ــ ولم سؤالك هذا ؟

ــ لاطمئن الى انني استطيع ان ابيت هنا ريثما تهدأ الدنيا .

ــ ومن اين انت ؟ ومن انت ؟

ــ انا عامل في المزرعة ، وذاهب الى شزار ؟

ــ شزار بعيدة . كان يجب عليك ان تعرف انك لن تستطيع الوصول اليها في مثل هذا الطقس .

وشدت احداهما بفسطان الاخرى ونهرتها :

ــ لينم هنا . وهل في ذلك من عار ؟

ــ لم يدخل بيتنا رجل منذ عشرين سنة .

ــ لن يغمض لي جفن هذه الليلة . الافضل ان يكون في قربنا رجل نحتمي به .

وكان الرجل قد اتكأ على مسند على الارض فوق حصيرة عتيقة ، وغفا وراح يشخر من كثرة التعب .

ذهبت العانسان وجاءتا باحرام من الصوف ووضعتاه عليه وانقلبت كل واحدة الى فراشها وفي رأسها الف فكرة وفكرة . ولم تلبث زمرد ان نهضت وجلست في فراشها وسألت زينة :

ــ هل اطفأت القنديل ؟

ــ ابك شيء ام هو الخرف كالعادة ؟

ــ انت الصبية اليس كذلك ، لولاي يا جيفة لاكلك الدود من زمان .

ــ اخفي وجهك . انك ترعبينني بهذا الشعر المنبوش وهذ الوجه الفارغ .

ــ انت آية في الجمال ، يكفي هذا السن الوسخ الكريه ، ولذلك تزوجت ورزقت اولاداً .

– انا لو كنت احب جنس الرجال لكان عندي ماية منهم . اني امقتك حتى الموت هل عرفت ؟

– موتي يا ملعونة لانظف البيت من رائحة جسمك الكريه .

– ساحيا مـاية سنة بعد . وسأتزوج نكاية بك . ستموتين انت قبـلي . وسأدفنك بيدي وابصق على قبرك .

– هه ... هه ... هه ... قهقهقه ...

ورددت الاخرى :

– هه ... هه ... هه ... قهقهقه ...

واختلطت قهقهاتها في ارجاء البيت اختلاطاً استفاق عليه الرجل :

– ساعدني يا رب . ليطلع الضوء وامشي بسلام .

ثم قالت زمرد برصانـة :

– اسمعي . اعندك جرأة كافية ؟

– لاي شيء ؟

– اريد رؤية هذا الرجل على ضوء القنديل . فمن هو يا ترى ؟

ونهضت زمرد وامسكت القنديل وتبعتها زينة على رؤوس اصابعها . ولـمـا وصلتا اليه قالت زمرد :

– يا له من رجل جميل . انه لا شك ابن عائلة كريمة .

وقالت زينة :

– ما الذي جاء به الى هنا ؟ هل حالت الامطار دون وصوله الى بلدته ام ان هناك غاية في الامر ؟

– اتقصدين انه لص ؟

ـ لست ادري .

ـ ارفعي هذا الاحرام لاراه جيداً ؟

ورفعت الاحرام علـى مهل فتململ الرجل ومد يده يتلمس الاحرام وهو مقفل العينـــين .

ـ انه اتقى رجل عرفته .

ـ ان على وجهه مسحة من الكآبة والالم .

ـ ظننت به شراً ، وهو ابعد ما يكون عن ذلك .

ـ هاتي احراماً آخر . انه يرتعش من البرد . عندنا من الاحرامات ما يكفي عشرين رجلاً . عجلي . اما شبعت من النظر اليه ؟

ـ اتريدينه لك وحدك ؟

ـ لولاي لما سمحت له بالدخول الى هنا .

ـ لم يكن لي الجرأة . اني اخاف .

وبعد ان وثقنا من انه ينام والدفء حواليه . عادت كل واحـدة الى فراشها تفتش عن الدفء . لكنها لم يغمض لهما جفن طوال تلك الليلة .

وعند طلوع الفجر كان الرجل قد فتح الباب وانصرف .

ودهشت زمرد وزينة عندما وجـدتا الفراش فارغاً . فعقدت زمرد حاجبيهـا وتطلعت الى زينة وقد تملكها الخوف :

ـ أيكون عفريتاً من عفاريت الليل وحسبناه رجلاً ؟

ـ وهل من شك في ذلك ؟

اما الرجل فلما وصل الى بيته اخبر امرأته واولاده كيف قضى ليلته في بيت لا يعرفه ، غريب في شكله ، عجيب في سكانه : وانه وهو نائم احس بوقع اقـدام وبايد ٍ تزيح عنه الغطاء ، وانه واثق بانها عفاريت الليل .

امام المصور

تسلم منصور الهواري رسالة من شقيقه المهاجر في اميركا يطلب فيها ان يبعث اليه بصورته باقرب وقت .

انه لطلب بسيط ولكنه ليس بالسهل تدبيره وتناول الرسالة وراح يعيد قراءة هذه الكلمات :

« قل لي ألم تزل ترتدي السروال والطربوش انهما من الاشياء المضحكة هنا . ولكن لم ازل احب ان البسهما لاتذكر الضيعة وشباب الضيعة ليس الا . فتراني اذا ما جاء الليل فتحت الخزانة اقلب ما فيها واشم رائحة الماضي الجميل . ارجو منك ان ترسل لي صورتك . ولا ابالغ اذا قلت لك انني شاهدت الالوف المؤلفة من اصحاب الشوارب . فلم يعجبني شارب واحد . ان شاربيك الشقراوين المعكوفين نادرا المثال . ان فيهما عنفواناً وجمالا تحسد عليهما . وتأكد من ان صورتك سيكون مركزها في صدر الدار

اعاد منصور قراءة هذه الاسطر مراراً فاحس بنشوة من السعادة . فكانت هذه الرسالة بمثابة شك بألف دولار . وقام الى المرآة ينظر الى نفسه ويفتل شاربيه رافع الرأس عالي الصدر يضحك تارة ويعقد حاجبيه تارة اخرى .

من صباح غد سينزل الى بيروت ويتصور . ان المصورين في الضيعة لا يعرفون ان يأخذوا الصورة حقيقية . فهذه الصورة سيرسلها الى اميركا . وسيكون مركزها في صدر الدار . فعليه ان يرسل شيئاً يبيض الوجه . ولو كلف كثيراً وتعطل بسببه شغله . فقد استشار مختار الضيعة فقال له : انزل الى بيروت . فالمصور في بيروت فنان يعرف كيف يصورك . فهو يرتب لك هندامك ويسوي لك شعرك وشاربيك . ويقول لك كيف تقف . فالتصوير له قواعد . وليس

كالمصور الذي صور ابو يوسف . هل رأيت صورة ابو يوسف ? يد طالعة ويد نازلة. وشعرة الى الشمال وشعرة الى اليمين . ليس هـــذا فقط . انت تعرف ابو يوسف اشقر ابيض مثل الثلج مسكين بالصورة عبد اسود مثل الفحم . اياك ان تغلـــط نفس الغلطة . فصورتك ستكون فرجـة وفخراً لاخيك فلا تـــدع اهل اميركا يضحكون علينا .

لقد قرر ان ينزل الى بيروت ففتح الخزانة ونادى اخته استير :

حـذي ونظفي لي السروال والجاكيت ، واكويهـــا وفرشي الطربوش وامسحي الحذاء بدهن اللون واكثري حتى يلمع كالمرآة .

[illegible] من ساعته اغتسل بالمـاء الساخن وفرك جسمه بالليف الخشن حتى كاد يطلع الدم [illegible] ان يظهر موضع من جسمه في الصورة وعليـه اي « دبغ » ثم اخذ قطعة قماش وبلها بالماء ووضع عليها قليلاً من الملح وراح ينظف بها اسنانه. لكن هناك سن بين اسنانه الامامية مكسور الرأس . ماذا يفعل بهـــذا السن ? سيعمل جهده بان يطبق فمه ولا يظهر شيئاً منه . سيقول له ان اكثر ما يكره ان يرى صورة رجل يضحك . فالرجـل عليه ان يكون في الصورة رجـلاً بكل معنى الكلمة ، رصيناً ، عاقداً حاجبيه ، في عينيه علائم البأس والسطوة ، خصوصاً هذان الشاربان ومد يديه الى شاربيه وفتلها ، لا يليق بها الا صورة عنترية .

وها هو في اليوم التالي يركب البوسطة بطريقـــه الى بيروت وراح يتخيل نفسه في الطريق امام المصور . حقاً ان المصور لمزعج . انه يتكلم بدون انقطاع وكأن في يديه الحركة الدائمـة . وهو يعتبر الذي يريد ان يصوره طفـلاً . افعل كذا وقف جيداً وارجع للوراء وتقدم بضع خطوات ثم ارجع الى الوراء وارفع رأسك ، ابتسم قليـلا . واعبس قليـــلا . انزل يديك ارفع يديـك . بكل زر الجاكيت . انفخ صدرك انظر الى هنا . لا تتحرك . لقد تحركت احترقت الصورة.

وصلت البوسطة الى ساحة البرج في بيروت ونزل منها منصور فاقد الوعي من كثرة التفكير في امر الصورة . ومشى دون ان يرسم لنفسه خطة . وما كاد يقترب

من تمثال الشهداء حتى ضجت في اذنيه اصوات المصورين من ذوات الآلات الخشبية المعروفة في اول عهد التصوير :

– تفضل يا استاذ تصور .

– خذ صورة تذكار يا خواجه .

– هل تسمح يا افندي بان اصورك ؟

– لحظة يا بك ، يا شيخنا ما بدنا مصاري بدنا صورتك بس .

فالتفت الى الاخير وقد خفق قلبه :

– تريد صورتي !

– اذا كنت بتسمح . فبودي ان اضعها في زجاج الآلة ركلاماً .

واقترب المصور منه وراح ينظر الى شاربيه :

– الله على هذين الشاربين ما اعظمها . .

ووثق منصور من كلامه :

– اريد ان اتصور ولكي تعرف اهمية هذه الصورة سأتلو عليك هده الرسالة .

وعندما انتهى من تلاوتها ربت المصور بيده على كتف منصور قائلا :

– انت لا تعرفني . انا اكبر مصور في البلد . والالوف من الاميركان تصوروا عندي ، والآن ارجو ان تسلمني نفسك وان تعيرني اهتمامك الكلي .

وشكل عن ذراعيه وفرك كفيه وامسك الآلة بيد ورفع اليد الثانية في العلاء ، وبدأ بعمـــله .

– ارجع للخلف مسافة اربعة امتار .

ونظر المصور اليه من خلال الزجاج وضبط آلته . ثم تقدم نحـوه وبكل زر جاكيتته . واخذ مشطاً وسوى له شعره . ثم فتل له شاربيه . وقال له :

– قف وقفتك الطبيعية ، وانظر اليّ .

وعاد المصور الى آلته. لكن منصور اخذته الحيرة. كيف يقف وقفة طبيعية؟ وبان عليه الارتباك .

– قرب قدميك لبعضهما .

ففعل منصور ما طلب منه .

– ارفع رأسك .

– اضحك قليلا .

فابتسم منصور مرغماً وظل فمه عابساً مطبقا .

– انزل يديك .

– انفخ صدرك .

– تقدم قليلا .

– لقد اكثرت .

– عد لخلف خطوة واحدة .

– برافـــو .

– اضبط كتفيك .

– احني ظهرك قدر سنتمتر .

– قلت لك احني ظهرك . لقد احنيت رأسك ايضاً .

ومنصور يكاد يحترق وهو جامد كالصنم تحت اشعة الشمس المحرقـة . وتصبب العرق منه واحس بالتعب . ولكنه صابر على ذلك يطيع اوامر المصور اطاعـــة الجندي لقائده .

ولاحظ المصور ان منصور لم يعد ليقوى على الوقوف فصاح به :

ـ انظر الى هنا . لا تتحرك واحد اثنين ... لقد تحركت احترقت الصورة .

ـ بعد كل هذا العذاب . احترقت الصورة ؟ ارجو ان تريحني من هذه الصور الاصطناعية خذلي صورة على ذوقي وفقك الله .

فمسح المصور العرق المتصبب على جبينه وقال له :

ـ امرك .

وعاد منصور ووقف في مكانه . وبعد ان فتل شاربيه عقد حاجبيه ورفع رأسه بكبرياء ونفخ صدره . فاختطف المصور الصورة اختطافاً .

وتناول منصور الصورة وهو لا يصدق بانها طلعت ولم تحـــترق . ونظر اليها وردد في نفسه تلك العبارة : الله على هذين الشاربين ما اعظمها ، ووضعها في غلاف متقن واسقطها في صندوق البريد متمنياً لو انـه يسافر معها ليشاركها العز الذي ستناله في صدر الدار في بيت اخيه في اميركا .

المجنون

كان يعرف « بالمجنون » ... في الاربعين من عمره . لكن ملامحـــه : وجهـه اليابس الاسمر وجسمه النحيل وعينيه الفارغتين تدل على انه بلغ الستين او السبعين من العمر . وان اياماً سوداء وازمات حادة مرّت في حياته .

وبالرغم من انه يملك ثروة طائـــلة واراضي واسعة فان مظهره يوحي الشفقة ويدعو للاعتقاد بان هذا الرجل كان شيئاً ما في الماضي ، واليوم تبدلت حـــاله . خصوصاً لدى مرأى ثيابه ، فهي ليست من النوع الذي يمكن لاي كان شراؤها . غير ان الاهمال مزقها ولا كها .

كثيرون حاولوا عبثاً ان يعرفوا سر حياته . حتى استقروا على اعتباره مجنوناً من الذين اختلفت اسباب جنونهم .

المعروف عنه انه سافر الى اميركا ولم يعد الا بعد عشر سنوات . واتخذ له حال رجوعه الى الوطن بيتاً هو بعض املاكه في ضاحية من ضواحي بيروت وجعل منه سجناً لنفسه . لا يخرج منه الا نادراً للاشراف على زراعـــة اراضيه . والمعروف ايضاً عنه انه جلب معه من اميركا كلبة افرنجية صغيرة ذات صوف كثيف ابيض . كانت همه الوحيد . فهو لا يفارقها ليل نهار . ويكاد لا يتفوه بلفظـة الا باسم هـذه الكلبة : « دجولي » . والغريب انه لا يدعها تفلت الا وهو وراءها ، يمنع اياً كان من التعرض لها . واكثر ما يغيظه من الناس مداعبتهم لهـا او لمسها او مناداتها . فاذا خالفه احد بذلك فار دمه ، كأن نوبة من نوبات الجنون تنتابه . والويل لهذه الكلبة المسكينة السجينة ان هي خرجت من حديقة البيت او حاولت التقرب من كلب تصادفه . قصاصها الضرب المبرح حتى يطلع منها الدم وتمـلأ الفضاء صراخـاً كصراخ انسان يستغيث ! يريدهـا ان تبقى الى جانبه ، تصعد عـلى ظهره وتقف

على كتفه وتجلس في حضنه وتمرغ رأسها برأسه . يريدها سجينة معه . صبورة تتألم اذا كان السجن يؤلمها او تفرح اذا كانت الحياة على هذ الشكل تفرحها . المهم ان تخضع لاوامره وهو تجاه ذلك يعاملها افضل من معاملته لنفسه . يطعمها الواناً من الطعام ليس بمقدور كثير من الناس اكلها . ويحيطها بعطف وغيرة نادرين . وبالتالي ، وهو الاهم ، انه يعيش كأنه يعيش لها ليس الا .

انه لا يتعرف الى احد . ولا يحب احداً . وعندما يأتيه خبر وفاة احد الناس يقهقه حتى يقع على ظهره . ويلعن كل حي على وجه الارض . انه يتمنى ان تموت الناس جميعاً ويبقى هو وحده والى جانبه كلبته الحبيبة « دجولي » . واذا صدف ودخل عليه فقير غريب يطلب الحسنة ، اعطاه من اللعنات والشتائم ما لا نهاية له .

وعندما يهبط الليل يدخل الى غرفته ويقفل الابواب والنوافذ ولا يدع شقاً صغيراً للهواء . ويغرق البيت في عتمة مخيفة وسكون رهيب .

لكنه يستفيق قبل طلوع الفجر ويخرج الى الحديقة وعلى كتفه « دجولي » يتمشى حيناً وحيناً آخر يجلس على ضفاف ساقية يستمع الى سقسقات مياهها ولا يلبث ان يحتضن « دجولي » ويداعب صوفها محدقاً الى عينيها شارداً ويذوب عاطفة فيوسعها لثماً .

ويحكي الجيران عنه حكايات عجيبة لا يمكن للعقل البشري الاخذ بصحتها ، منها : انهم شاهدوه ذات يوم يربط الكلبة بجذع شجرة ثم ينهال عليها ضرباً بالعصا ، وكلما استغاثت الكلبة ازداد هياجاً بالضرب حتى سال منها الدم وانطرحت ارضاً مغمياً عليها . وهنا العجيب في الحادثة ، فما شاهدها تنطرح في الارض لا تبدي حراكاً حتى ارتمى عليها واحتضنها واخذ يقبلها محاولا التخفيف من المها ، ويمرغ شفتيه ووجهه بدمها . ثم حملها وعاد بها الى البيت كأنه يعود من معركة سقط فيها قلبه جريحاً .

وظل اكثر من اسبوعين لا يخرج من البيت ابداً . يقضي اوقاته بالاعتناء بجروح « دجولي » الى ان شفيت ، وقد حكى احد الفلاحين عنده فقال : « ان

سيدي انفق على شراء العقاقير لدجولي اكثر من الف ليرة . ثم زاد وقال : ولكن العقاقير لم يستعمل منها شيئاً فهو يطلب الدواء ثم يقذف به من الشباك صائحاً بي: لقد وضعت به السم لتتخلص منها ؟ سأقتلكم جميعاً ! ان ماتت « دجولي » ثم يهز الفلاح بكتفيه : ولكنه الجنون .

ولولا فكرة الناس بانه مجنون ، لضرب المثل ببخله . فله انسباء بحالة يرثى لها من الفقر . ينامون عاضين على جوعهم بينما هو ينام والذهب يضيع وهجه في ظلمة الصناديــــق .

وظل على هذه الحــــال حتى اصابه المرض فاعتل ولازم فراشه ، ومرت ايام والبيت مقفل لا يراه الناس ولا يرون كلبته . وربمــا تساءل بعضهم عن مصيره ، ولكن اهتمامهم له لم يتعد النظرة يلقونها عــــلى بيته في ذهابهم وايابهــم ثم يهزون الرأس : فهو مجنون !

حتى كان ذات صباح فاذا هم يستفيقون على طلق ناري . ودهشوا عندما رأوا احد الفلاحين يحمل جثة « دجولي » فسألوه عند خروجـه فقال ان سيده هو الذي اطلق عليها النار بيده وامره بدفنها ، ثم عاد الى فراشه .

وبدأ المجنون بعد ايام قليــــلة بالهذيان . هذيان الموت . وهو دائم الحركة ، منبوش الشعر ، يهم كل دقيقة بالقفز من الفراش ليندفع نحو احد فلاحيه فاتحاً فمه رافعاً يديه المرتعشتين يريد خنقــه او يريد من اشارته هذه اطـــلاق النار عليه ، صائحاً : من قتل دجولي الا يمكن ان تعود الى الحياة ؟ ساقتلها ان عادت وادفنها بيديّ . آه يوم شردت على الشاطيء وفتشت عليها فاذا هي بين ذراعي دجــــولي تداعبها دون ان تعرف لمن هي . وتعارفنا منذ ذلك الوقت . هـل اشفى واعود الى اميركا . لربما لم تمت « دجولي » كان علي ان اتأكد من موتها .

ثم يقهقه : هه ... هه ... هه ... قهقهه ...

ولقد ظن الحاضرون ان ما اعترف به المجنون لاول مرة هو هـذيان الموت . لكن قد ثبت بعد ذلك ان المجنون قـد ارتكب جناية قتل في اميركا وهرب الى

الوطن . والتفصيل هو ان المجنون كان قد تعرف وقت اقامته في اميركا الى فتاة اميركية وتعلق بحبها . وذات يوم اذا بعروس احلامه تبتعد عنه دون سبب . وتتركه هائماً يلتاع بقلبه الجريح · وبينما كان في امسية من الامسيات يتمشى على ضفاف نهر في الضاحيات ، شاهد حبيبته بين ذراعي رجل . فاضطرب قلبه وثار دمه واذا به يندفع نحوهما ويطلق النار على دجولي فيرديها على الارض تتخبط في دمها . ثم يتوارى عن الانظار .

واذا به بعد مدة في الوطن مع كلبته التي كانت سبب التعارف بينه وبينها والتي اسماها باسم عشيقته دجولي . واتخذها دجولي ثانية .

لذلك فان ما ظنه الحاضرون هذيان الموت ما هو الا الحقيقة : لقد قتل دجولي مرتين . ومات هو مطمئناً .

شاب ومسمار

كان يخرج من البيت صباح كل يوم ولا يعود الا في اوقات الطعام وفي ساعة متأخرة من الليل . يمشي في الطرقات يتفرج على الناس في رواحهم ومجيئهم . او يقيس الدرب . الى ان يأخذه التعب فيدخل الى مقهى من المقاهي التي تبيع فنجان القهوة بربع ليرة . فاذا كان في جيبه مال طلب حال وصوله فنجاناً وجلس على طاولة مقابل الشارع ، يحتسيه بكبرياء واضعاً رجلاً فوق رجل ، واذا كان ليس لديه مال جلس في زاوية المقهى بانتظار احد الاصدقاء والاجاويد .

— نهارك سعيد خواجه الياس . كيف الصحة ؟ اين كنت غائباً . كيف اهل البيت ؟ كيف اشغالك . تفضل ، كرسون ... كرسي للخواجه .

فيخجل الخواجه الياس ويجلس . ويلتفت فرج الى الكرسون مشيراً له ان يحضر فنجانين من القهوة . ويصارح ضيفه :

— انا لا اشرب القهوة . الطبيب منعني . لكني ساشرب معك ولو « شفطه » صغيرة .

— هذا واجب علينا .

— وهل من فرق . انت وانا واحد . ثم يفتش في ثيابه عن علبة السكاير « الغير موجودة » :

— غريب . اذكر اني وضعت العلبة في جيبي قبل ان اخرج من البيت .

فيندفع الخواجه الياس ويتناول علبته :

— تفضل . تفضل يا سيد فرج .

فيأخذ فرج سيكارة متصنعاً التأسف . ويأتي وقت الحساب فيحـاول فرج ان يمسك الكرسون ويمنعه من قبض الثمن من الخواجه الياس . لكن في النهاية يدفع الخواجه الياس . فالسيد فرج بارع في تمثيل هذا الدور على كثرة التكرار .

ويخرج بعد ذلك يتمشى و كلما رأى صديقاً اسرع اليه وصافحه مصافحة حارة ولا بد له بعد السؤال طبعاً عن الصحة والاشغال والاهل ان يطلب سيكارة :

— ما هو مشروبك اليوم ? « لكي » « مستر فيلد » ? « كمـل » ? اعرف ان سكايرك طيبة دائمـاً .

والكثيرون كانوا يعرفونه ويعرفون مراميه . فمنهم من كان يضحك :

— اما تزال على خلاف مع بائع الدخان ?

— اما تزال مضرباً عن شرب الدخان ? وهل يجوز ان نتحمل نحن وحدنا نتائج الاضراب ?

وكان فرج يتألم في قرارة نفسه بالرغم من القهقهة التي كان يحاول فيها التخفيف من غلاظته وثقل دمه . هو يعرف ان وجوده كوجود الذباب عـلى مائدة الطعام عندما يكون برفقة اصدقاء وليس في جيبه قرش ، حتى ولا عود كبريت . ولكن ما حيلته لقد خلق في ساعة شؤم كما يعتقد ، فعاش شؤماً على اهله وعلى الناس .

لم يدخل في رأسه من العلم الا قراءة و كتابة اسمه لا غير . والبيئة التي يعيش فيها بيئة متوسطة ، والبيئة المتوسطة هي البيئة الفقيرة في الواقع اذ ان مصروفها اكثر من مدخولها ، وهي تقدم على البذخ والترف لا تحسب للغد حساباً ، همها هم اليوم الذي تعيشه ، وسيان عندها خربت الدنيا في الغد او عمرت .

وقد خرج فرج الى الحيـــاة وليس بيديه اي سلاح يدفع بـه صروف الايام وغدرها . حسب الحياة العوبة يتسلى بها على هواه وما ظن انهـا كالمبرد اذا حاول ان يلحس من حلوها دون ان يحتاط لها بردت لسانه برد المبرد .

كان يكتفي في بادىء الامر بمبلغ زهيد يقبضه من والده آخر كل اسبوع وكان

كلما تقدم في الحيـــاة زادت معارفـه وزادت ملذاته . وملذات الدنيـا لا عد لها كلها جذابة تأخذ بلب الانسان وبعقله . وكان من الطبيعي ان يطلب المزيد من المال من والده الذي كان يأمل انه لا بد ان يأتي يوم يجد ابنه فيه عملاً يعوض به ككل والد يأمل من ولده ان يكون له في المستقبل عوناً وساعداً :

ــ غداً يا ام فرج سيشتغل ابننا . وسيطلب مني ان ارتاح . بـل سيمنعني عن العمل . وساتفرغ لك ، وآخذك لشم الهواء . ولن ندع مكانـــاً الا ونعرج عليه وسنشرب النارجيلة في مقهي البحرين حيث يلتقي المتقاعـدون ويتباهون باولادهم آه ! هل اعيش لارى فرج داخلاً الى البيت مساء كل يوم وعرق العافية يتصبب منه وغبار العمل على ثيابه ؟ هل اعيش لاراه داخـلاً الى البيت وبيده هدية لنـا هدية بسيطة يشتريها من اجرته من تعبه ويقول لنا : « هـذه اشتريتها لكم . لقـــد فكرت بكم وانا عائد من العمل »

ويلتفت الوالد الى فرج :

ــ متى ستشتري لنا كيلو بقلاوه ؟ لنأكله بشهية ونقول هذا من تعب فرج ؟

وكيف لفرج ان يجد عملاً . واي عمل يمكنه القيام به . هل يدخل محلاً تجارياً انه لا يعرف القراءة ولا الكتابة هـل يشتغل في البيـع والشراء ؟ ان تقاليـــد « البيئة » تمنعـــه ان يكون مستخدماً . هل يستوظف ؟ انه لا يشتغل في السياسة ولا يعرف احداً من رجالها . اذن اي عمل يسعى اليه ؟ هل يسعى للصناعة والصناعة محدودة بعدها مخنوقة ضمن حدودها الضيقة . هل يسعى للزراعة والاراضي تعوزها الآلات الحديثة والقروض المالية .

فلينتظر اذن نعمة الله او ان تمطر السماء مالا بدل الشتاء . وبالتالي لا بد له من المشي . المشي في الطرقات يفتش عن لا شيء . ولا بد له من الزيارات لعل الناس تدله او تساعده للوصول الى « الغير الموجود » .

ويرتاحه كل يوم هو هو . لا يتغير ولا يتبدل . ينهض صباحا يمـلأ بطنه اكلاً دسما ويطمئن الى نهاره الطويل الفارغ ويحلق ذقنـه بيده ويرتدي ثيابـه المكوية

النظيفة ويمشي على بركة الله مسرع الخطى فكأنه ذاهب الى العمل وخائف من ان يتأخر عن الموعد المعين .

وذات يوم عاد الى البيت في ساعة مبكرة من المساء . فاستغرب اهله هذه العادة الجديدة وطلب حال وصوله القدوم وعلبة المسامير :

– سأصلح درجة من درجات السلم المحطمة .

واخذ القدوم بيد وامسك بالمسمار بيده الثانية وراح يدقه شمالا ويميناً . وعبثاً كان يستقيم المسمار وينزل في خشبة السلم . ان لدق المسمار طريقة يعوزها الخبرة . ونوفز لهذا الفشل . الفشل في هذا العمل البسيط . وهل اسهل من دق المسمار . انه لا يعرف حتى دق مسمار . وثارت ثائرته آخر الامر ورفع القدوم في الفضاء وقذف به فاصطدم بصحن زجاج فتكسر قطعاً وانفلش في الارض فركضت والدته توبخه .

– هذا عمل جنون يا فرج وليس عمل شاب مهذب مثلك ؟

فاندفع في وجهها قائلا :

– ولكنه على كل حال عمل .



سارق الديك

– من الطارق ؟

– افتح .

– لن افتح ما لم تقل لي من انت .

– افتح والا كسرت الباب .

وعاد يقرع الباب وهو يصب وابلاً من الشتائم على اصحاب البيت وساكنيه. واخيراً فتح الباب فدخل رجل طويل القامة اسمر اللون ذو لحية كثـــة ، فارغ الوجه . يتستر ببذلة عتيقة مرقعـة بالف لون ولون . فدب الرعب بصاحب البيت وعائلته فسألوه :

– ما تشاء قل ما تشاء ؟

فغضب الرجل وضرب بيده على طاولة قريبة منه وصاح بهم :

– اريد مالا .

فهرولوا وجاؤا اليه كل واحد ملء كفيه مالا وقالوا له :

– خذ كل هذا ودعنا سالمين .

فتناول المال باطراف اصابعـــه وقد ظهر على شفتيه القرف وعلى عينيـــه الاشمئزاز . ثم صاح بالزوجة :

– انزعي هذه الجواهر التي ترزحين تحت ثقلها .

فنزعتها وقدمتها اليه . ثم اقترب من الزوج وامسك بكتفه وهزه هزاً عنيفاً :

- ما جئت للمال ولا للجواهر . ولا للقتل ولا للنهب . جئت لابيت ليلتي واذهب قبل طلوع الفجر . مضى اسبوع وانا افترش الطرقات . فما وجدت احداً يقبل ان ادخل بيته حتى ليلة واحدة .

فانشرح صدر الجميع لكلامه . وتنفسوا الصعداء . ودنوا منه فرحين يعرضون عليه اسرتهم .

- اذهبوا الى اسرتكم .

فاطاعوه وناموا . اما هو فقد نام على سجادة وسط الدار حتى اذا ما طلع الفجر فتح الباب وانصرف مختفياً عن الانظار .

وطويت من السنة شهور عدة . وذات يوم اذا بالرجل الطويل القامة ذي اللحية الكثة يلتقي صاحب البيت الذي آواه تلك الليلة في شارع من شوارع المدينة التي تعج بالناس فدنا منه وامسكه بيده :

- اعرفتني ؟

- ومن انت لاعرفك ؟

- اخفض صوتك لئلا تقول الناس عنك انك مجنون .

- ابعد عني ايها الوسخ .

وكاد ان يستنجد بالناس وبرجال البوليس للقبض عليه . سوى ان الرجل تراجع واختفى في زحمة الناس .

وفي اليوم الثاني على الغذاء كان صاحب البيت جالساً مع عائلته حول مائدة حوت من الطعام ما لذ وطاب . وكان يتوسط المائدة ديك محشو واذا بالرجل ذي اللحية يدخل عليهم فجأة وقد بهر عينيه مرأى المائدة ، فصاح بهم :

- انا جائع . وانتم تأكلون فوق شبعكم ؟

واقتحم الطاولة واختطف الديك وفر به هارباً . فقامت قيامة صاحب البيت

واقسم بانه سيقتل هـــذا الرجل مهما كلف الامر . وقصـد من فوره اول مخفر للبوليس واطلعهم على امر هذا الرجل الرهيب واعطاهم ملامحه . فعرفـــه رجال البوليس للحال وقالوا له :

ـ اطمئن . انه اتعس رجل في هذه المدينة . وهو طيب جـداً . لم نسمع عنه قط انه اساء الى احد . وهو لاجيء مجهول الهوية . ولا اهل عنده ولا معـــين . لكننا سنطبق القانون بحقه ان اعاد الكرة وحصل ما لا يرضيك .

فعاد الى البيت وقد عقد النية على اخذ الثأر بنفسه . انه لم ير في حياته رجـلًا وقحاً كهذا مهما تعست حاله . بالعكس ان الفقير يكون عـادة متواضعاً يطلب الحسنة وهو ذليل مكسور الخاطر . ولا يندفع الى الناس كالذئب يفترس مطلبـه افتراساً .

اما الرجل ذو اللحية فقد علم بعد ايام بالشكوى التي قدمت بحقـــه للبوليس فقصد الى صاحب الديك في بيته فوصله ليلًا . ولم يكد يقرع الباب حتى فتح له . فسأل عن صاحب البيت . فقيل له :

ـ لقد نام .

ـ الا يمكن ان اواجهه دقيقة واحدة ؟

ـ وصل منذ ربع ساعة . كان قد سافر لبعض الاعمال وعاد منهوك القوى .

ـ اذن انتظر ليفيق .

فاخذ كرسياً وجلس عليها . فدب الرعب بقلوب اهـل البيت . لقد عـاد ذو اللحية فما هو مطلبه الليـلة ؟ ومر في رأس كل واحـد منهم الف سؤال وسؤال : « هل يريد مالا ؟ » « هل يريد لباساً » « هل يريد غـير النوم والطعام ؟ » « ماذا يريد هذا الرجل الذي لا يحلو له الا زرع الرعب في قلوبنا ؟ » « اليس في المدينـة اغنياء سوانا ؟ » واخذوا يدورون بعيونهم فيه متفحصين . انه هادىء الاعصاب . « ترى هل هو يتظاهر بذلك ليوحي لنا بالثقة ؟ »

وانقضى برهة طويلة ساد الصمت بها . فتضايق ذو اللحية فسألهم بحمق :

— اما شبعتم من النظر الي ؟ الهذه الدرجة اصبح منظري يخلق الرعب والدهشة والاستغراب ؟ بـ اذا تفكرون ؟ تتساءلون هل انا لص او مجرم ؟ اتريدون ان تطلعوا على مقصدي ؟ مقصدي قتلكم جميعاً . اذهبوا الآن وناموا . واياكم ان توقظوه او يدخل الى غرفته احـد منكم . ما جئت لانام ولا لاطلب شيئاً . سأبقى جالساً على هذه الكرسي الى ان يفيق من تلقاء نفسه .

وسمع حوالي منتصف الليل انيناً مؤلماً . فعرف انه انين صاحب البيت فقام ودخل عليه فوجده يتقلب متضايقاً وقد ازيح اللحاف عنه . فوضع يده على جبهته فاذا بها حارة . فسوى اللحاف وهمس في أذنه :

— أبك شيء ؟ ام هو التعب ؟

فتململ الرجل وفتح عينيه فكاد يموت خوفـاً لما رآه . فانسل تحت اللحاف مختبئاً . اما ذو اللحية فعاد الى الكرسي .

ولم يمض برهة قصيرة حتى نهض صاحب البيت من فراشه . واخـذ المسدس ووقف خلف الباب يراقب ذا اللحية . فرآه جالساً على الكرسي وقد اغفى نصف اغفاءة . ومن شق الباب اطلق عليه النار فارداه قتيلاً .

وكان على اتفاق وزوجته على قتله ودفنه في البئر في حديقـة البيت . فحملاه وقذفا به الى قعر البئر .

وفتشا بين الاوراق التي نزعاها من ثيابه فوجدا صرة صغيرة اخذها الزوج الى غرفته وفضها فوجد رسالة ممزقة عتيقة بقي من كلماتها ما يـلي : « هذه آخر رسالة اكتبها لك . وكنت قبلاً قد كتبت لك مفصلاً عن الحـالة التي صرت اليها . عبثاً اجد عملا . لليوم لم استلم منك جواباً . يخبرني العائدون من طرفك انك موفق في اشغالك . هل انقلب الدم الى ماء ؟ هل فقدت العاطفة ؟ لو علمت والدتك بالقساوة التي انت فيها اليوم لقامت من قبرهـا وانكرتك . انا لا اطلب حسنـة . اطلب

منك مساعدة اعيدها اليك اضعافاً فيما بعد . اني مؤمن بالمستقبل ، ولن اظل شريداً وحيداً عديم الحظ . اني اسامحك. ولن ازعجك فيما بعد بقراءة رسائلي». (اخوك)

وحاول ان يقرأ الامضاء فلم يستطع فاعاد قراءة الرسالة مرة ومرتين ثم اعاد قراءتها مرات عديدة جامداً في كل كلمة مفكراً . وتساءل : من هو الذي قتلته؟» وخارت قواه . لقد احس بثقل الجرم الذي اقترفـه . وتصبب العرق من جبينـه ودارت الغرفة به دوراناً مخيفاً . واندفع الى الخارج نحو البئر فـلم يسمع حركة كان ذو اللحية قد مات ودفن وصار تراباً . فدبت الشجاعة في قلبه واستعاد قواه. وعاد ودخل الى غرفتـه فرأى على الارض ان في الصرة غير هـذه الرسالة ففتحها فوجد ورقـة صغيرة مكتوب عليها « ثمن الديك » ففضها فاذا بها من المـال ما هو ثمن الديك تمامـــاً .

لقد جـاء ذو اللحية يدفع ثمن الديك . اما صاحب الديك فقبض ثمن ديكه حياة انسان .



بعت ضميري

ما زالت عيناي عالقتين في درج طاولة بائع الدخان تدوران بالمال المزدحم فيه من فئة الليرة والخمسة والعشرة وغيرها! ، علها تعرفان الخمس ليرات التي دفعتهـــا للبائع . وتحاولان ان تتذكرا شكلها او علامة فيها لتدفعاني في وجه هـذا البائع المنافق الذي يريد سلبي بانكاره بانه قبض مني الخمس ليرات .

– دفعت لك خمس ليرات يا صاحبي حاول ان تتذكر .

– دفعت لي ليرة واحدة

– غلطان يا صاحبي

– انا ؟ انا اغلط . هه .. هه .. هه ..

– الغلط يجوز . كل انسان يغلط

– انا لا اغلط . يأتي لعندي الف «زبون» كل يوم وبامكانك ان تسأل عني .

– انا اقول بانـــك قبضت الخمس ليرات بدون انتباه واعتقدت انك قبضت لـــيرة .

– لا .. لا .. لا .. عقلي معي . وهل خرفت ؟

– وهل كل من يخطىء مجنون او خرفان !

– لم اقبض منك الا ليرة واحدة . وهذه هي الحكمـــة والحكومة . رح واشتك علي .

وهممت بان اضرب هذا اللص الوقح واحطم رأسه . ولكني جمدت في مكاني .

– لن اشتكي عليك . ولكني ساعود في المساء . واترك لـــك الوقت الكافي

لتتذكر وتنهي حسابك اليومي .

وخرجت من عنده وانا ضائع . ومشيت وكأني احمل المدينة على رأسي . فقد آلمني جداً فقد الخمس ليرات على هذا الشكل الاجرامي . انا واثق من نفسي بأني تركت البيت وفي جيبي خمس ليرات قطعة واحدة وليس في جيبي غيرها لا شك في امر وجودها او عدم وجودها . خمس ليرات قلبتها مراراً بين يدي وتفحصتها . وهناك برهان اكبر . انني مررت على بائع دخان في اول الشارع ولم اشتر من عنده لان ليس في صندوقه « فراطة » . فهل يبقى لي مجال الشك ؟

وعدت اليه في المساء فانكر وكرر نكرانه . فاقسمت له فلم يصدقني . فاستحلفته فاقسم بالله وبكرامته وشرفه . ففار دمي وجننت واذا بيدي تمتد الى كرسي واقذف به على وجهه . فامعن هو بالفرار فتصطدم بواجهة زجاج فتتحطم وتنهار على الارض محدثة ضجيجاً جلب الناس من كل جهة فهرولوا يستوضحون ويتساءلون . اما انا فاكتفيت بذلك وخرجت الى وسط الشارع ورحت اقذف هذا اللص بوابل من الشتائم . ومن ثم مشيت ولكن بغيظ وحنق . وانا عائد الى البيت عادت بي الذكري الى ايام صغري وتذكرت ذلك العتال الصغير الذي يخيل الي انني لن انساه ما حييت . فلي معه قصة تشتد رسوخاً في ذهني يوماً بعد يوم .

كان يمر من امام بيتنا بسرواله المنفوخ وشعره المنفوش على جبهته ، وعلى وسطه زنار من الحبل ضخم . حافي القدمين لا يأبه باوحال الشتاء واوساخ الطرقات مأواه الشجر وارصفة الشوارع ايام الصيف وتحت الشرفات والسلالم ايام الشتاء .

في ذلك الوقت كنت انا صغيراً يقارب عمري العشر سنوات . وكان رفاقي عصابة اشقياء يرجمون الغريب بالحجارة ويغزون الجنائن والبساتين ويضحكون من كل ذي عاهة . ويخربون كل ما طالت ايديهم في الطرقات وفي بيوت الجيران . وكان هذا العتال الصغير يقف كلما رأى احداً منا مضطربا ويدور بعينيه القلقتين في كل جهة خائفاً كل مرة ان يقذفه احد منا بالحجارة او يلحق به ويضربه بالعصا او يبصق عليه او يسلبه سله . لكنه لا يلبث ان يتابع سيره ذابل العنق رأسه في

الارض ذلك لانني انذرت الرفاق كلهم واوصيتهم بان يترك هـذا العتال الصغير وشأنه . فقد حدث ذات يوم ان كنت عائداً من المدرسة وكان هو عائداً ايضاً من عمله وهو يغني . فغاظني غنـاؤه واغضبني فرحـه . فلحقت به وامرته ان يسكت ويمشي بهدوء وسلام . فاطاعني للحال وانقلب فرحه الى موجة من الالم طغت على اساريره . وراح يبكي ثم ركع على الارض وتوسل الي ان اتوسط مع العصابة كي لا تعتدي عليه واخبرني انه يتيم لا معين له الا الله وانا. ولست ادري من اين اتتني الشفقة . وقد كنت قاسيا لا اعرف للشفقة من معنى . فعطفت عليـــه واوصيت رفاقي في العصابة به . لكن كنت احس مرات عديـــدة وهو مار امامي بشيء يدفعني لضربه بل لسحقه اذ كيف يجوز استثناء هـذا الانسان الوسخ من بطشي .

اما قصتي معه فهي ان والدي كلفه ذات مرة بحمل بعض الاغراض وايصالها الى البيت وطلب مني ان انقده اجرته . وكان في جيبي في ذلك الوقت نصف ليرة جمعتها غرشاً غرشاً . وكنت اعرف ان المبلغ الذي سادفعه سيعود الى جيبي اضعافاً وبالرغم من ذلـك انكرت في نفسي حق هـذا العتال باجرته هكذا دون سبب . وعندما جاء الي وفي عينيه استجداء وعلى شفتيه الالتماس وفي يديـه الرجاء اخذت النصف ليرة من جيبي وهززتها في وجهه قائلا :

— كم اجرتك ؟

فارتبك وادار ظهره ومشى . فلحقت به وقذفت النصف ليرة بوجهه بكبرياء:

— خذ اجرتك واعطني الباقي .

فانحنى على الارض والتقطها وبدلا من ان يعطيني ربع ليرة اعطاني ثلاثة ارباع باعتقاده انه قبض مني ليرة . اما انا فتجاهلت خطأه غير مصدق ان في يدي ثلاثـة ارباع الليرة . وانطلقت جهة البيت ركضاً . وما اسعد تلك اللحظـة التي دخلت فيها غرفتي ورحت امتع نظري بهذا المبلغ الذي جاءني دفعة واحـــدة ، معدداً المشاريع التي بفضل هـذا المبلغ يمكنني القيام بها . ولكن كان الى جانب فرحي خوف حاولت ان ابعده فلم استطع . والغريب انني تساءلت عن سبب هذا الخوف

فلم اجد . هل اخاف من هذا العتال وهو الذي يحتمي بي من بطش العصابة . هل يجرؤ ان يتهمني ان انا انكرت وكذبته ؟ اصلبه على الشجرة كما صلبنا رفاقه وكما صلب هو اكثر من مرة . اطارده ليل نهار واقذفه بالحجارة اينما شاهدته . احطم له السل . لن تفلت يداي النصف ليرة مهما كلفني ذلك .

وعبثاً حاولت ان اهدىء من روعي فيتمثل لي هذا العتال الصغير بعملاق كبير وقد كشر عن انيابه ورفع في وجهي يداً عريضة كالرفش وهو يهددني بانه سيخطفني ويخفيني في سله الكبير ويدفنني حياً ان كنت لا ارد له النصف ليرة .

وعندما هبط الليل ولم يأت عاد الي بعض الطمأنينة . وقلت في نفسي : لا بد ان يكون قد ظن انه اضاعها .

وفي اليوم الثاني دخل والدي الى البيت ووراءه العتال واول ما بادرني به :

— اين النصف ليرة :

فاختنقت ولم اقو على فتح فمي . لا لاعترف بجريمتي بل لارد عني التهمة واردها بصوت صارخ ومن ثم اهجم على هذا الانسان الوسخ وامزقه . وعندما احسست بالفشل دخلت الى غرفتي واخذت اشهق بالبكاء . ولم يدرك والدي اي معنى كان لدموعي . فظن انها كالعادة تعني البراءة فما كان منه الا ان اندفع نحو العتال الصغير وصفعه على خديه صفعتين رنتا رنيناً مؤلما في جوانب الدار ثم رفسه فانقلب على درجات السلم واختفى .

وهكذا بعت ضميري انا ايضا ولكن مرة واحدة .

كتب للمؤلف

صديقة الاحزاج (مجموعـــة قصص) ١٩٤٦

رجل سياسة (مجموعة قصص وحكايات) ١٩٥٢

فهرس الكتاب

صفحة

مطبعة فاضل وجميل ـ الدوره